قبلة الوداع الأخير

رواية

عادل سالم

(١)

لبنان

تموز، يوليو ٢٠١١

عندما وصلت إلى مطار بيروت، كان فادي بانتظاري. وجه حزين لم أعهده من قبل. غابت البسمة عن وجهه. عانقني بحرارة والدموع تسيل من عينيه مع أنني لم أغب عنه سوى ثلاثة أيام. لم أستطع مقاومة دموعه، فسكبت عليها بعضًا من دموعي.

لم ينبس بكلمة واحدة. كان الموقف مشحونًا بالعواطف والأحاسيس. سار أمامي إلى السيارة. لم أسأله عن أي شيء، فعَن ماذا أسأله في مثل هذا الموقف؟ قدرت الوضع الصعب، وكنت على يقين أنه سيُخرج ما في جعبته عندما تتحرك السيارة متجهة بنا إلى البيت في صيدا.

في الطريق من بيروت إلى صيدا ظل صامتًا. سألته عن تفاصيل أكثر، فرد علي قائلاً

– ستعرف كل شيء عندما نصل البيت.

تركته ولم أثقل عليه، واستسلمت مثله للأحزان. كنت أبكي بصمت وأنا أتذكر رحلة عمري الماضية في لبنان.

أوقف سيارته أمام العمارة التي كانت تعيش فيها. صعدنا إلى الشقة في

الطابق الثالث. فتح الباب بمفتاحه، وأشار إليّ بيده أن أتقدم، كأنه يريدني أن أسبقه إليها.

دخلت البيت، ثم توجهنا فورًا إلى غرفة نومها. اقتحمنا عليها خلوتها. لم يكن هناك أحد. الغرفة ساكنة لا حراك فيها. غابت عنها صاحبتها. نظرت إلى السرير فرأيت ورقة وصورة. رفعت الورقة لأقرأ ما بها، فإذا هي رسالتي الأخيرة إليها؛ تلك التي قدّمتها إليها بنفسي قبل أيام فقط عندما ودعتها في صيدا.

رفعت الصورة الصغيرة لأرى صورتي على السرير؛ لأول مرة أدقق مليًّا في صورتي كأنني لم أرها من قبل. تساءلت: لماذا كانت تحملها قبل وفاتها؟

هل أرادت أن تستعيد بها ذكريات حب قديم قتلته بيديها، أم لتندب حظها الذي ساقه إليها قدرها؟

نظر إلي فادي، وبدأ يشرح لي كيف وجدها. قال لي:

– بعد أن ودّعناك قبل ثلاثة أيام، أوصلتها شقتها، وعدت إلى بيت أهلي. اتصلت بي بعد ساعة باكية، وطلبت مني أن أحضر حالاً، ففعلت، فقدّمت لي رسالتك التي قدّمتها إليها أنت قبل سفرك في مغلف مغلق، وطلبت منها ألا تقرأه إلا بعد سفرك، وعندما فتحته، ووجدت فيه مبلغ خمسمائة دولار، لم تصدق أنك تقدم لها تلك الهدية بعد كل ما فعلته بك، وعندما قرأت رسالتك أصيبت بصدمة.

كانت تتوقع أن تكون رسالتك رسالة عتاب. رسالة توبيخ. رسالة انتقام. كانت تعتقد أنك ستلسعها بسياطك ولسانك بعد أن عجزت بيدك. كانت تتمنى لو قتلتها، أو ضربتها، لا أن تسامحها بعد كل المشاكل التي وضعتك بها.

رسالتك إليها كانت تقول لها: "سامحتك.. سامحتك. كأنك تردد على مسامعها أغنية أصالة نصري (سامحتك). كنت فعلاً تحمل قلبًا كبيرًا لا تقاومه كل المخارز."

قالت لي: "اقرأ ما كتبه لي؟"

لم أصدق أنك سامحتها على كل ما فعلته، وأنك تقدم لها هدية مهما كانت متواضعة.

هدأتَ من روعها، وأعدت البسمة لوجهها الشاحب بعد أن استعدت معها رحلتنا معك، وثرثرنا عن طيبتك وأصالتك، وضحكنا كثيرًا، وبكينا. لم نكن نعلم كيف كنا ننتقل من البكاء إلى الضحك، فالحديث عنك نصفه نار، ونصفه جنة، أو لعل نصفه مفرح، ونصفه الآخر مبك.

وبعد حوالي ساعتين عدت إلى بيت أهلي. كنت على اتصال مستمر معها حتى نمت، وفي الصباح كان أول شيء عملته هو أنني اتصلت بها لأطمئن عليها، لكنها لم ترد، فاتصلت مرة، ومرّات، وعندما لم ترد جئت إلى بيتها بسرعة. قرعت الجرس فلم تفتح الباب، فاضطررت إلى أن أكسر الباب، ودخلت الشقة بسرعة لأجدها في السرير نائمة. حاولت إيقاظها فلم تستيقظ. حركتها فلم تتحرك. صمت برهبة وتساءلت: "هل ماتت؟". لفت انتباهي

شيء في يديها؛ فتحت اليد الأولى فرأيت ورقة مطوية عندما فتحتها رأيت رسالتك إليها، وعندما فتحت اليد الثانية كانت بها صورتك؛ تلك الصورة الصغيرة التي رأيتها على السرير.

كانت قد أحكمت إغلاق يدها عليها، كأنها لا تريد أن يراها أحد سواها.

تنهد فادي بعد أن توقف لثوانٍ ثم قال:

– لا أدري هل ماتت حزنًا على حبيب لن يعوض، أم لأن رسالتك إليها وصفحك عنها قد أشعرها بوخزات الضمير التي لم تعد تتحملها؟

نظرت إلى عينيه، ورحت أجول بالنظر في الغرفة. كنت مندهشًا لمَا آلت إليه الأمور. بحثت في جدران كل غرفها فلم أر سوى صوري معها التي كنا نلتقطها قبل هجرتي من لبنان. تساءلت وأنا أعيد ذكريات تلك الصور: لماذا تحتفظ بكل هذه الصور، وتحرص على تلك الذكريات، وهي التي اختارت أن نفترق؟ ما الذي أدخلني إلى عالمها الغامض؟ أكنت العاشق الولهان، أم كنت الباحث عن مصائب لنفسه بنفسه؟

لعن الله المسبب. لو كنت أعرفه لقتلته.

فجأة، تمسمرت أمام المرآة التي كانت تقف أمامها كل صباح لتصفف شعرها. نظرت فيها فلم أر سوى صورتي وخلفي يقف فادي حزينًا ينتظر ردة فعلي، هذه المرآة ستكون حزينة بعد اليوم؛ لقد غابت عنها صاحبتها. ظالمة هذه الحياة. أناس يزرعون الحياة، وآخرون يزرعون الرعب والدمار!

أليس غريبًا أن يحصد الشر من لم يزرعه؟ لماذا يا رب تركتها تموت وهي في ريعان شبابها، بينما المجرم حر طليق؟

وضعت الصورة والرسالة في جيبي، وخرجت من غرفة النوم لأرى صورة فوق التلفاز تجمعنا نحن الثلاثة. ربما الصورة الوحيدة التي جمعتنا.

سألت فادي:

– ماذا ستفعل بالشقة والأثاث؟ هل ستعيش بها؟

– أعوذ بالله. هل تريدني أن أعيش مع الصور والأشباح؟ أنسيت أنني أسكن عند أهلي؟ أما الأثاث فهو لك، فأنت صاحبه.

– أنا؟ أبعد طلاقنا بقي لي شيء؟

– أنت من اشتريته، أم تريدني أن أعطي الأثاث لأهلها؟

– أهلها؟ لا تعطهم شيئًا، فهم سبب كل بلائها.

– حسنًا.. ماذا تقترح؟

– سأترك لك المهمة، فأنا لن أظل في لبنان أكثر من عدة أيام.

صمت، ثم قلت له:

– فادي أنت زوجها.. أنسيت؟

– هل تريد أن تذكرني بأنني زوج على ورق؟ أنت تعرف أنني تزوجتها بعد سفرك لأضع حدًّا للشائعات التي لاحقتها. ما هذا الزوج الذي ينام في

بيت أهله؟!

حاولت أن أضحك فلم أفلح. كنت أشعر بإرهاق شديد، كيف لا وأنا القادم من أمريكا قبل وقت قصير بعد وصولي هناك بساعة فقط!

(٢)

الولايات المتحدة

مطلع حزيران ٢٠١١

أصر أولادي هذا العام على أن أصحبهم في عطلة الصيف في رحلة بعيدة، خارج الولايات المتحدة، لأنني وعدتهم أكثر من مرة ولم أف بوعدي. كنت كل صيف أؤجل السفر بسبب الضائقة المادية، أو بسبب الانشغال، وأكتفي معهم برحلة قصيرة في إحدى الولايات الأمريكية القريبة.

هذه المرة لم يعد بإمكاني أن أختلق أعذارًا لهم. سأفي بوعدي حتى لا تهتز صورتي أمامهم، فالوفاء ليس مجرد مشاعر، أو أحاسيس، بل هو كذلك ممارسة على أرض الواقع، يتعلمها الأبناء من الآباء.

لكن.. هل نذهب إلى هاواي؟

كلا، فليست لي رغبة بذلك على الرغم من جمال تلك الجزيرة. أحب أن آخذهم معي لزيارة إحدى الدول العربية ليتعرفوا إلى بلد العرب التي جاء والدهم منها.

بعد صمت وتفكير قلت لنفسي: سنزور لبنان. نعم.. آن الأوان لزيارتها. مر وقت طويل على مغادرتي لها. اشتقت لأهلي، وأقاربي، وأصحابي.

تنهدت كمن تفتحت جروحه واستعاد معها آلامه. نعم لبنان.

فردت علي زوجتي عواطف:

– يا حبيبي.. لماذا لبنان الآن؟ الأوضاع صعبة، والمشاكل كثيرة. لم لا نزور ماليزيا؟

– ربما في العام القادم.

– حسنًا.. لكن ألا تخشى مما يحدث في لبنان؟ ألم تسمع عن مسلسل الاغتيالات؟ الوضع مخيف هناك. لا نريد أن تنفجر فينا قنبلة أو سيارة مفخخة؟

– ما هذه الوساوس؟ أليست بلادنا؟ أنت ولدت هنا، لكن أباك وأمك ولدا هناك. لقد تعودنا على ذلك، أم أن سنوات الغربة في أمريكا غيرتنا؟

– ماذا لو أعلنت إسرائيل الحرب على لبنان ونحن هناك؟

– ستجد أبطالاً مقاومين بانتظارها.. أبطالاً يستحقون أن يرفع لبنان كله وسامًا على أكتافهم.

كنت أعرف أنهم على حق، فالأوضاع صعبة للسياحة في لبنان، لكنني أعتقد أن الأوضاع ستكون على ما يرام. عشت في لبنان في ظل المقاومة في الماضي، وعلى الرغم من كل الحواجز بين المدن فقد كنت سعيدًا.

سعيد؟ أية سعادة تلك التي أتحدث عنها؟ كم مرة لعنت فيها لبنان؟ أقصد لعنتها هي، هي التي... يبدو لي أنني لم أخرج من وساوسها بعد.

لا أحد يستحق اللعنة سواي. أنا السبب في كل ما حصل. أنا الـــ...،

ولماذا أزور لبنان الآن؟ ألأنني وعدت أولادي بالسفر إلى بلد جديد هذا العام؟ هل حقًّا أنا ذاهب هناك كي أعرّفهم إلى بيروت، وصيدا، وبعلبك، والجبل، ومغارة جعيتا؟ أم أنني أريد العودة إلى هناك كي أستعيد ذكرياتي الماضية؛ ذكرياتي التي كلما حاولت أن أنساها تعود فتقفز لي من صفحات الماضي، رافضة أن يطويها الزمان؟

أيها المخادع.. ألم تكتب آخر قصيدة تستعيد فيها الماضي وتطلب منها أن تخرج من جبال ذكرياتك دون عودة؟ ألم تقل لها فيها:

"هيا احملي

تلك الحقيبة وارحلي

وخذي دفاترك القديمة كلها

لا تتركي من ذكريات الأمس

حتى قبلة

طبعت على ثغر جميل

وقصائدا كانت على صدر

قلادة لؤلؤ

لا تتركي بيتًا ولا حرفًا ولا صورًا

تذكّرنا بأيام الحنين

لا تنظري للخلف

فالدمع في عينيك

منذ حكاية وخيانة قد جف"

لقد دعوتها لتأخذ معها كل ما يذكرك بها، فلماذا تحاول نبش الماضي؟

أليست العودة إلى لبنان محاولة لاستعادة الذكريات التي طلبت منها أن تأخذها؟

لماذا تحاول العودة لتستعيد منها بعض ما حملتها إياه؟

ألم تخنك؟

كيف؟ ومتى؟

لو كنت مقتنعًا بكل ذلك ما فكرت بزيارة لبنان.

تقول إنك تحب لبنان حتى بدونها. نعم.. لبنان بلد جميل، لكنه متقلب بين الحب وبين الحرب، لا يفرق بين الاثنين سوى حرف الراء، وأنت تشبهه؛ فلم تعد تفرق بين الاثنين. تحذف حرف الراء متى شئت، وتعيده في أي وقت تشاء.

ستراها طبعًا مع زوجها. ستزورهما. ستزور صديقيك، اللذين أصبحا منذ تلك اللحظة المشؤومة أو السعيدة، أخوين لك.

ستأخذ أولادك لزيارتهما. ستقول لهما لكنك تقصدها هي تحديدًا: "انظُرا..

ها هم أولادي. انظري إلى علي، وسعيد، وعماد."

لا بد أنك تنتظر تلك اللحظة. تريد أن ترى عيونهما كيف تدور وهم يرونهم.

أولاد مثل القمر جمالاً، وذكاء. سوف يسألك أولادك بالتأكيد:

– بابا.. من هؤلاء؟ وأين أولادهم؟

– لن تستطيع أن تجيب شيئًا، فماذا يمكنك القول والأولاد ما زالوا صغارًا؟!

لكن زوجتك تعرف كل شيء، تعرف السر المخفي أو بعضه، فهل ستأخذها لتلتقي بمن سبقتها إلى هذا القلب؟

النساء يغرن. صحيح أن زوجتك تعرف أنه لم يعد لك علاقة بها، لكنها لن تكون سعيدة وهي تراك تسلم عليها وترحب بها. ستراقبك مثل "الإيواكس" وأنت تلتقي بها بعد هذا الغياب الطويل. ستراقب عيونك، وتعابير وجهك. ستراقب كل حركة من عينيك. ستعد عليك همساتك. أنت لا تعرف النساء، فخبرتهن في هذا المجال يصعب وصفها. إنه حقها الطبيعي. أليست زوجتك؟ ألا تحتل مكانًا في قلبك، أم هل تنازعها عليه امرأة أخرى؟

ما هذه الوساوس التي تنتابني؟ لا بد من طردها، وأفضل طريقة لذلك ألا أستسلم للوحدة؛ علي الانشغال بأمر ما لأطرد كل أشباح الماضي، فأنا رجل تسكنه الأشباح، مثل الفيروسات غير المرئية التي تسكن الأرجل، وتحب المناطق المظلمة في الجسم، وتظل تنخر في الجسم دون أن يراها أحد.

حملت معطفي، وقلت للأولاد: سأذهب الآن لأحجز لكم التذاكر. كم يومًا تريدون البقاء هناك؟

- هل نستطيع أن نبقى شهرًا؟

- شهرًا بكامله؟ حسنًا.. سأرى.

قبل أن أغادر البيت، سألني علي:

- بابا.. في أي فندق سننزل هناك؟

- سنحاول أن نستأجر شقة مفروشة، فما رأيكم؟

- على الروشة؟ سألتني زوجتي.

- لا طبعًا، ولكن في صيدا؟

- شو شو بدنا بصيدا؟ احنا رايحيين نشم الهوا مش نزور صحابك.

- طيب سأحجز في فندق قريب من الروشة.

رقص الأولاد لأنني استجبت لأمهم دون أن يعرفوا الفرق بين الروشة وبين صيدا.

حجزت التذاكر، وترددت قبل أن أحجز الفندق. قلت في نفسي: لم لا أتصل بفادي هناك كي يحجز لي بالفندق فقد يكون أسهل. بعد تفكير قررت أن أحجز الفندق ولا أُعلم أحدًا هناك؛ سأجعلها مفاجأة لهم.

بدأت العطلة الصيفية، وعاد الأطفال سعداء. علي أنهى الصف الثالث

وعمره عشر سنوات، أما سعيد فعمره ثماني سنوات وقد أنهى الصف الثاني، وآخر العنقود عماد فعمره ست سنوات.

كان عماد أكثرهم حركة، ودائم السؤال، وعندما عدت قال لي:

- هل اشتريت التذاكر؟

- نعم.. اشتريتها يا عماد.

- بابا.. هل تسمح لي برؤيتها؟

- لماذا؟ ألا تصدقني؟

- بلى، أصدقك، لكني أردت أن أراها؟

- لماذا؟

- لأني أحب أن أرى لونها؟

- وماذا يهم لونها؟

- أوووه يا بابا، لماذا لا تريدني أن أراها؟

نظر علي وسعيد إلي وقال كل منهما:

- بليز بابا بدنا نشوف التذكرة.

- لا تكلموني بكلمات إنجليزية مع العربية، وإلا ألغيت السفر.

- حسنًا.. من فضلك أرنا التذاكر.

ناولتهم التذاكر، فبدؤوا يقلبونها ويتفرجون عليها. لم يصدقوا أن السفر إلى لبنان سيصبح حقيقة.

كانت زوجتي سعيدة، وبدأت منذ قررنا السفر إلى لبنان بالتخطيط ماذا ستفعل هناك. لأول مرة ستزور لبنان منذ ولادتها. لم تترك صديقة لبنانية إلا وسألتها عن أحلى المناطق في لبنان. لم تترك موقعًا على الشبكة عن لبنان إلا وزارته، وصارت تسألني كل يوم عن مناطق زرتها، ومناطق لم أزرها.

قلت لها ذات مرة:

– لا تقلقي نفسك، فنحن سنبقى هناك شهرًا كاملاً يكفي لزيارة كل لبنان من الجنوب حتى الشمال.

ردت علي ضاحكة، وقالت:

– لن أترك موقعًا بدون زيارة، أو سهر.

– أنت لا تسمعين الأخبار يا عواطف؟ فقد يكون السهر غير آمن في هذه الأيام.

– نعم.. نعم.. نعم، ولماذا نذهب؟

– ألا تخافين؟

– ألم تقل لي لا يوجد ما يدعو للخوف؟ ما يحصل للبنانيين يحصل لي. سنتفق من الآن قبل أن نسافر، كل ليلة سنسهر في مكان. أنسيت بأنك قلت

لي إنك كنت تسهر هناك في "بيتي كافيه" على الروشة، وفي نهر الفنون، وفي...، كل هذه الأماكن يجب أن أزورها.

صمتت ثم أكملت:

– حبيبي.. أحلم الآن أنني أجلس معك على الروشة نشرب النارجيلة ورائحة مياه المتوسط تتسلل إلى أنوفنا، بينما الموسيقى تنساب بهدوء إلى آذاننا.

ضحكت، ثم تابعت:

– هي فرصة لنستعيد أيام الرقص معًا.

– هل سترقصين؟

– وماذا يعني هذا السؤال؟ ليه لأ؟

– أمام الناس؟

– أنا أرقص مع زوجي.. يا سلام؟

قلت لها:

– ولكني لا أعرف الرقص.

هاهاها. ضحكت، ثم قالت:

– العب غيرها. أنت معلم في الدبكة، وحتى لو لم تكن تعرف الرقص سأعلمك. لا تقلق. أنت منذ وصولنا هناك ستكون تحت أمري. اترك لي

نفسك يا حبيبي. دعني أعيدك عشر سنوات إلى الوراء.

- إيه يا ريت.

- لا تقل يا ريت. أنت دائمًا تتصرف كأنك ابن ألف سنة. يا حبيبي.. أنت دائمًا تحبطني.

- حسنا.. لا تقلقي. سأكون بإمرتك، هل أنت سعيدة الآن؟

- نعم.. سعيدة معك.

اقتربت مني، وطبعت على شفتي قبلة. صاح الأولاد: "هيه".

انتهت زوجتي من حزم حقائب السفر، غدا بعد الظهر موعد إقلاع الطائرة، الجميع سعداء، والسرور باد على وجوههم جميعا حتى زوجتي التي أصرت في تلك الليلة أن تصبغ بعض شعرات لي كانت قد ابيضت لتجعلها سوداء، فهي تريد في رحلتها ألا أبدو شابا صغيرا فقط، بل تريد أن تجعل من رحلتنا كما قالت شهر عسل جديد.

انتهت من صبغ الشعر. نظرت إلى المرآة؛ فعلاً تغير وجهي كثيًرا. يا سلام! سأبدو أصغر بعض الشيء من يوم غادرت فيه لبنان.

ترى ماذا ستقول عندما تراني الآن؟

هل ستقول شيئًا؟ لم يعد هناك ما يقال؟ هل تقصد ما ستهمس به لنفسها؟ أتريد أن تشعرها بأنها أخطأت بقرارها؟ أم تريد أن تقول: نحن هنا؟

ماذا يعنيك بها الآن؟ ألم تتركها؟

بل تركتك هي، وأجبرتك على أن تخرج من حياتها. ماذا تراها تقول الآن؟

هل هي سعيدة بحياتها؟ هل فعلاً تزوجته؟ أم أنه زواج صوري كما قيل لك؟

لا أعرف الحقيقة. أحيانًا أسأل نفسي: هل فعلاً تزوجته كما قالا ليحميها ممن حولها؟ أم أنها تزوجته فعلاً؟

كيف لي أن أعرف؟ أنا أعيش بعيدًا عنها آلاف الأميال. كلما أسأل أحدهم بطريقة غير مباشرة، لا أسمع جوابًا شافيًا. هل اتفقا أن يخفيا عني الحقيقة؟

لماذا يخفياها؟ حتى لو تزوجها فعلاً وعاشرها معاشرة الأزواج، ماذا يهمك ذلك الآن؟ ألم تخرجها من حياتك؟

ألم تصبح مثل أختك؟ ألم تقل لها ذلك كما قالت لك هي نفسها ذلك؟

نعم هي أختي أو قريبة منها. هل أرغب بالعودة إليها؟ لا.. لا أفكر بذلك. حتى لو عدت أعزب من جديد لن أعود إليها. حتى لو غنت لي أغنية نجاة الصغيرة "ارجع إلي"، فلن أعود لها.

إذًا.. لماذا يقلقك زواجها إن كان حقيقيا أم صوريا؟ ألم تتمن لها السعادة؟ أم أنك عاجز عن الوصول إلى شاطئ الأمان؟

لا أعرف كيف أصنف نفسي؟ كلما تذكرت تلك الأيام أصاب بالصداع. أحيانًا يخيّل إلي أنني كنت غبيًّا، وأحيانًا أخرى أصف نفسي بالوفاء. لم يعد

هناك فرق كبير هذه الأيام بين الغباء والوفاء.

من النادر جدًّا أن يفي الناس بوعودهم. الكل في هذا الزمن أصبح يسأل عن نفسه فقط. ألم يقل لي فادي يومًا ما:

– يا سامح.. أمسك أعصابك حتى لا يعتقد الناس أنك أهبل. لا تعطها ليرة واحدة. شو نسيت حالها شو كانت عند أهلها؟

اليوم يوم السفر، هل أنتم جاهزون؟

– علي، سعيد، عماد إلى السيارة بسرعة.

نقلت الحقائب كلها. كان معي أحد أصدقائي الذي سينقلني إلى المطار، وأهل زوجتي.

حملت زوجتي معها حقيبة كاملة فارغة، وعندما سألتها، قالت ستملؤها هدايا وتحفًا من لبنان:

– معقول أزور لبنان ولا أعبئها تحفًا منها؟

– أنا أعرفك، فلا هم لك إلا أن تملئي البيت بالهدايا والتحف.

– إي طبعًا، أنا بموت بالتحف؟

(٣)

نحن الآن في الطائرة المتجهة إلى بيروت.

لا أعرف كيف ستكون بيروت بعد غياب والدي ووالدتي؛ هل سيكون لها مذاقها الخاص؟

الطائرة هادئة لم تتعرض لأي مطب هوائي. الأولاد ناموا بعد دقائق من إقلاع الطائرة، أما أمهم فقد أسندت رأسها إلى الخلف وبدأت تطالع إحدى المجلات بعد أن وضعت السماعة على أذنيها لتستمع لبعض الموسيقى. كانت تجلس في الجهة الأخرى من المقاعد، والأولاد يجلسون بيننا. نظرت إليها، فأرسلت لي قبلة في الهواء وغمزة عين، فأعدت لها قبلة جديدة وابتسامة، ثم أسندت رأسي إلى الوراء، وأغلقت عيني موهمًا من حولي أنني ذاهب في نوم عميق.

أي نوم سيأتيني هذا اليوم وأنا في طريقي إلى لبنان بعد هذا الغياب الطويل؟

أحداث كثيرة مرت على لبنان منذ زيارتي الأخيرة؛ حكومة إثر حكومة. مسلسل اغتيالات. موالاة. معارضة...

هل تغيرت هي أم بقيت كما هي؟

قبل خروجي من لبنان كانت لدي رغبة في الانتقام منها. كنت أود أن

أضربها. أن أنشب أظافري في جسمها. أن أعضها. أن... لكني بعد أن دخلت جناح الطائرة المغادرة، وأيقنت أنني سأغادر بلدي الذي أحب تساهلت وصفحت عنها.

أهو فعلاً تسامح مني، أم ليس أكثر من استسلام للأمر الواقع؟ ولماذا أستسلم؟ ما الذي يجبرني أن أستسلم؟

كنت ثائرًا في وجهها.

عشر سنوات مرت على خروجي من لبنان. هل تغير شكلها؟ هل ازدادت جمالا؟ هل شاب شعرها كما شاب شعري؟ كيف يشيب شعرها وهي لم تزل في سن الشباب بعد؟ كل من لم يصل الأربعين لا يزال شابًا.

إيه يا زمن.. هل تذكر كيف كان لقاؤك بها في تلك الأيام؟

كنت مشوش البال. تقنع نفسك أنك تخليت عنها لما فعلته بك وللمرارة التي ذقتها بسببها، ولكنك بعد ذلك تتراجع وتسامحها على ما فعلت. تبحث عن أسباب تبرر فيها كل إجراء تقوم به تجاهها.

هل تشفق عليها بسبب حالتها؟

هل تعد نفسك مسؤولاً عما حل بها؟

هل تحاول أن تستردها في المستقبل؟

هل تريد أن تسجل لنفسك شرف المحب الذي على الرغم من تخلي حبيبته عنه لم يتركها تغرق في مستنقع الأيام وغدر الزمان؟

أكنت تبحث عن رضا ضميرك أم رضا قلبك؟

الحيرة تسكنني دائمًا ولا أعرف كيف أغادرها. أحيانًا أصف نفسي بالجنون، أو بالغباء، وأبرر ذلك بالحب والقلب الطيب!

القلب الطيب؟

لهذا كنت دائمًا تحب هذه الأغنية للمطرب المصري محمد فؤاد. اشتريت الاسطوانة وكنت تسمع تلك الأغنية دائمًا.

عندما كنت أسهر في الـــ "بيتي كافيه" معها كان يأتي المطرب حسان هاشم ويسألنا:

– ماذا تحبّان أن تسمعا؟

فترد عليه وهي تنظر إلي:

– القلب الطيب.

منذ تلك الأيام أحببت تلك الأغنية، ربما لأنها كانت تحب سماعها، أو لأنها أهدتها لي واصفة قلبي بالطيب فعلاً.

ألم تعترف لك بذلك؟ ألم تقلها لك ألف مرة؟

– أنت رجل طيب، بل أطيب من عرفت بحياتي. لقد قدمت لي الكثير ولا أستحقه أبدًا. أنا لا أستحقك أبدًا، لأنني عاجزة عن تقديم أي شيء لك...

كنت تسألها:

– لماذا يا حبيبتي؟ لماذا لا تحاولين التغلب على نفسك؟

– حاولت كثيرًا لكنني فشلت. ليتك تعرف كم أحاول، لكني امرأة ضعيفة، بل أنا الضعف نفسه. لقد ظلمتك معي. أعرف ذلك. سامحني، واحسب كل ما أنفقته عليّ دينًا أسدده لك عندما أجد عملاً يدرّ علي دخلاً. مستعدة أن أوقع على أية تعهدات بذلك...

كنت أصمت محاولاً أن أبحث عن كلمات تناسب الموقف، فلا أجد، فكل ما سأقوله قلته أكثر من مرة:

لماذا تركتني كل تلك المدة وأنا أوهم نفسي بهذا الحب وأعيش على أنغامه؟ هل كانت له أنغام، أم كان مجرد صدى لأنغام عاشقين على مقربة منا؟

كان حبها مثل خيوط العنكبوت ملك علي كل شيء، ولم أستطع أن أفك نفسي منه بتاتًا.

كنت كالسكران الذي يترنح من شدة السكر، لكنه على الرغم من ذلك يستعذب الخمر ويقول: هل من مزيد، كما قال أبو نواس: "وداوني بالتي كانت هي الداء".

آه من الحب كم كوى قلبي وأتعبه. قيل لي: تعب الحب قمة السعادة. فهل كان صادقًا من قال ذلك؟

لماذا نعذب أنفسنا نحن الرجال بحب النساء؟ لماذا أصر قيس على أن يهيم على وجهه بحب ليلى، حتى جن وسمي مجنون ليلى؟

فما بال سلوى، وهند، وسعاد؟

لماذا لم أكن حازمًا وتركتها عندما رأيت تمنعها أو ترددها منذ الفترة الأولى التي تعرفت فيها إليها؟

أي حب ذلك الذي يأسر الرجل فيملك كل حواسه؟

ولماذا يا رب بليتني بهذا العذاب؟

الآن أسميه عذابًا وتعبًا وغباء، ولكن في تلك الأيام كنت أكتب لها قائلاً:

"وأقسم أن قلبي في ثوان

تعذب في هواكم ألف قرن"

(٤)

زيارة لبنان لم تكن تحتاج إلى برنامج ودليل سياحي، فلبنان ذلك البلد الصغير لا يحتاج إلى وقت طويل لزيارة أماكنه السياحية الصغيرة على الساحل.

كنت أحيانًا أذهب مع الأولاد وعواطف وحدنا كما فعلنا عندما زرنا منطقة حريصة وركبنا التل فريك لينقلنا إلى أعلى الجبل حيث تمثال مريم العذراء.

كان الأولاد سعداء وهم ينظرون إلى بيروت من أعلى الجبل.

قالت عواطف:

- جميلةٌ بيروت من هنا. ما أروعه من منظر!

وضعت يدي على كتفها وقلت لها:

- انظري ما أجمل البحر من هنا! أليس أجمل من أمريكا؟ لماذا لا نفكر يومًا بالعودة إلى هنا؟

- لا مانع بالعودة إلى بيروت، لكن ليس إلى صيدا، فهي أشبه ببيت قديم.

عواطف غير ملومة؛ فقد ولدت وعاشت في (ميتشغن)، ولم تعرف لبنان إلا من خلال الشبكة العنكبوتية. أهلها كلهم هناك لا أحد يفكر بالعودة أو حتى يتحدث عنها.

صيدا أشبه ببيت قديم! ليتها تعرف أن هذا البيت القديم أصبح بيتًا أثريًّا يضم في طرقه وشوارعه ذكريات زوجها وطفولته التي لا تنسى.

جميلة بيروت، لكنها أبدًا ليست أجمل من صيدا.

هكذا كانت تقول رانيا:

صيدا أجمل من بيروت. أحب أزقتها القديمة وكورنيشها وناسها. أحب قلعتها الصامدة على الرغم من الرياح، والعواصف، وآلات الدمار الإسرائيلية.

عندما وقفت مع رانيا في المكان نفسه قبل سنوات ننظر إلى بيروت، اقتربت منها. وضعت يدي على كتفها لأطوقها، لكنها حاولت التملص بأدب، وعبثًا حاولت، فلم تستطع الفكاك مني.

- رانيا أحبك.. لا تهربي مني يا حبيبتي.

- لماذا أهرب منك وأنا بين يديك؟!

كانت رائحة عطورها تتسلل بسرعة إلى أنفي فتسكرني. كنت أزداد اقترابًا منها. تحسست شعرها برأسي، ثم وضعت رأسي فوق كتفها الأيمن لأهمس في أذنها:

- ما أجمل بيروت ونحن ننظر إليها معًا!

فقالت لي:

- جميلة، لكن صيدا أكثر جمالاً. أنا لا أحب المناطق العالية. دعنا نعود.

- لماذا بسرعة؟

- اشتقت إلى صيدا.

هكذا رانيا كلما ابتعدت عن صيدا أرادت العودة إليها، وخصوصًا في بيروت. بيروت شكلت المكان الآثم بالنسبة إليها؛ مسرح الجريمة. لا تريد

أن تراه مرة أخرى. لا تريد أن تحس بوجوده.

بيروت ليست الأجمل لديها، بل لعلها آخر المدن التي تفكر أن تعيش فيها.

حتى أنا لو عدت إلى لبنان، فلن أختار سوى صيدا، ألأنني عشت بها طفولتي وشبابي؟ أم لأنني أملك فيها أول قصة حب لا تزال آثارها ماثلة في عقلي وفكري؟

كنت سارحًا وشاردًا عندما كانت عواطف تلتقط لنا بعض الصور التذكارية.

سألت الأولاد:

– هل سررتم؟

– جميلة بيروت يا بابا. قال سعيد، ثم أضاف: لكن أين الألعاب؟

قلت له:

– سنأخذك للألعاب قريبًا. لا تقلق.

بعد أن تعب الأولاد، وتعبت معهم عواطف قالت لي:

– لقد جعنا يا سامح.

– قلت لهم:

– ما رأيكم أن نأكل السمك في مطعم السلطان إبراهيم، فهو مطعم مشهور وسمكه لذيذ.

قالت عواطف:

– مثل مطعم (رد لوبستر) في أمريكا؟

– بل أكله أشهى. هناك ستتذوقين أنواع السمك بطعمها الحقيقي، فالأكل اللبناني مشهود له في كل مكان.

كان أحد المطاعم المشهورة في بيروت ليس فقط بطعم مأكولاته، ولكن أيضا بخدمته السريعة ونظافته، فأنت هناك لست بحاجة إلى أن تنادي على النادل (الجرسون) كلما احتجت شيئًا، فهو يأتي إليك دون أن تحرك رأسك. الماء متوفر على الطاولة دائمًا. المشروبات إن انتهيت منها ستجدها تبدلت بكؤوس جديدة. مشرف قاعة المطعم يراقب الطاولات ويوجه أصابعه بحركة يعرفها العاملون، وبناء عليها يقدمون خدماتهم، وإن احتجت لأحد منهم فأنت لست بحاجة إلى أن تنادي عليه أو ترفع يدك، فما أن تحرك رأسك حتى تجده أمامك.

أجمل ما في المطعم أنك بعد أن تستريح فيه قليلاً، يقدم لك الخبز الساخن الذي خرج من الفرن منذ ثوان. طعمه شهي، وليس مثل الذي يباع في الأكياس في أمريكا حيث يكون قد مر عليه عدة أيام.

في هذا المطعم قبل سنوات طويلة كنت مع رانيا نتناول السمك ونراقب حركة الشارع في الخارج من الطابق الثاني. كنت أقدم لها بيدي السمك لتأكله. كانت تفتح فمها الصغير فأدخل اللقمة مع الشوكة في فمها فتسحبها وتمضغها وهي تبتسم:

- سامح لقد أكلت كثيرًا، هل تريدني أن أنصح.

- السمك مفيد للجسم يا رانيا.

- ولكن بطني لم يعد يتسع لمزيد من الأكل.

- لا أدري لماذا أحب أن أراك تأكلين. كأنك طفل صغير يتلذذ أبوه وهو يطعمه، أو كأنني أحب أن أرى فمك الصغير يتحرك. لا أحب أن أراه ساكنًا.

كانت تبتسم، فتمد يدها إلى قطعه أخرى من الصحن وتطعمني إياها، فأتباطأ في التقاطها، وقبل أن أضعها في فمي أقبلها، ثم أقول لها:

- الله ما ألذ طعمها! كأنني آكل السمك لأول مرة.

- يا مكابر!

- لا يا رانيا.. لا أبالغ ولا أكابر. ألا تصدقين أن للأكل في مناسبات معينة طعمًا خاصًّا، ونكهة خاصة؟ كيف لا يكون للسمك نكهة مميزة وهو يقدم لي بوجه باسم تسحرني عيناه.

- ألا تكف عن هذا الغزل يا سامح؟

- كيف ومحياك يطلب مني المزيد؟

تشعر بالزهو، ثم تقول:

- أرجو ألا تصبح مثل مجنون ليلى؟!

- معقول؟

- طبعًا.

لاحظت عواطف شرودي، فقالت لي:

- سامح هل سرحت بشيء؟

كأن سؤالها أعادني إلى حيث أنا بعدما كنت قد سبحت إلى الماضي دون قصد. كمن يستلقي بعد وجبه غذاء، فيغفو دون أن ينتبه، ولا يستيقظ إلا بعد أن يوقظه أحد.

ابتسمت وقلت لها:

- يبدو أن كثرة الأكل تتعب المعدة، فيشعر الواحد بالنعاس.

فقالت لي:

- الأكل لذيذ، حقًّا إنه مطعم جيد. يذكرني بمطعم الأمير في ديربورن أو بمطعم لاشيش المشهور.

لا أدري لماذا أسرح كلما جلست في مكان كنا سابقًا نجلس فيه معًا؟

ما ذنبي أن لبنان صغير، وأننا لم نترك مكانًا لم نذهب إليه؟

ما ذنبي أن الأماكن تثير الذكريات والماضي؟

وما ذنب عواطف أن أسرح وأنا معها وأفكر بامرأة أخرى انتهت علاقتي معها؟

نعم انتهت إلى الأبد أو تحولت إلى علاقة صداقة، إلى علاقة أخوية. هل صحيح أنه يمكن للعلاقة بين الأزواج بعد الانفصال أن تتحول إلى علاقة أخوية؟

هل صحيح أنه يمكن للعشاق يومًا ما أن يصبحوا إخوة؟

هل يمكن للحب أن يتحول من نوع إلى آخر مثل المعادن التي تتحول بفعل النار من شكل إلى آخر؟

هل يمكن لأحد أن يصدق ذلك؟

وماذا أقول لنفسي؟ هل أصدق تلك الأوهام والأحلام؟ هل توقفت عن التفكير بها؟

نعم.. لقد تغيرت من ناحيتها.

نعم.. لم تعد لي كما كانت.

يقينًا لو قالت لي اليوم تعال وتزوجني وكنت أعزب، لن أفعلها.

لو جاءت لي تعتذر عن كل ما حصل منها وما بدر، لن أعود إليها.

أحيانًا عندما أفكر بالنتائج أحمد الله أن زواجنا لم يستمر، فلو استمر يقينًا سيكون أولادي نصف مجانين.

فلماذا إذًا تفكر بها؟ لماذا تتذكرها في كل مكان تذهب إليه؟ لماذا كنت تسأل عنها وأنت في أمريكا؟

هل تشعر بالمرارة لأنها تركتك؟ هل تشعر بالهزيمة لأنك لم تنل منها ما يناله الأزواج؟ أما زلت تطمع بقبلة طويلة على شفتيها تعيد لك الشباب وتسرى بجسمك كما تسري الدماء، فتشعرك بالحياة؟ هل تشعر بالهزيمة أمامها أم أن قصتها ما زالت تسكن داخلك؟

حزين عليها، لا تستطيع تحمل قصص الجرائم؟ هل أنت متضامن معها؟ فلماذا تركتها وغادرت لبنان إلى أمريكا؟

كنت متأثرًا بما حصل؟

كنت متأثرًا بالجريمة التي ارتكبتها ضدك؟

يا لهول الجريمة؟!

(٥)

منذ تخرجي من جامعة بيروت العربية قسم التجارة وإدارة الأعمال العام 1996 عملت محاسبًا لدى البنك العربي في صيدا. وهناك تعرفت بعد فترة إلى رانيا التي كانت تعمل سكرتيرة لدى شركة خليفة للمحروقات. كانت فرصة للتعارف، فبدأت أنقلها بسيارتي إلى بيتها القريب من هناك، بالقرب من مخيم عين الحلوة، ذلك المخيم الذي يذكرني موقعه والأسوار المحيطة به، والحياة المزرية التي يعيشها سكانه بمأساة الفلسطينيين، وإصرار حكوماتنا المتعاقبة على عدم منحهم المساواة مع أشقائهم اللبنانيين في العمل والحياة إلى أن تحل قضيتهم، بعكس ما كنا نفعل مع السوريين.

كانت رانيا شابة طموحة، نشيطة، تصل مكان عملها دون تأخير، فعدها مدير الشركة سكرتيرته الأولى، ما أثار حفيظة زميلاتها في العمل، وكانت تجيد الطباعة بشكل جيد وسرعتها في صف الكلمات مذهلة.

كانت تصبغ شعرها باللون الأحمر، وتجعله قصيرًا قريبًا من شعر الشباب. كانت نحيفة، ممشوقة الوسط كعارضة أزياء. تنتقي ملابسها بعناية على الرغم من أنها من عائلة فقيرة. كانت فرصتي الوحيدة للتعرف إليها خلال الطريق إلى بيتها، ولأن المسافة قصيرة كنت أتعمد أحيانًا تغيير المسلك، أو أتباطأ بالسير، وعندما تطورت علاقتنا دعوتها إلى تناول الغداء معًا في أحد مطاعم صيدا المطلة على الكورنيش. ترددت في البداية، لكنها عادت ووافقت لكن بشرط، ودون أن أعرف شرطها وافقت عليه، فكان

شرطها أن تصطحب معها زميلتيها في العمل، اللتين تعدهما صديقتيها المفضلتين. لم أعرف لماذا أصرت على اصطحابهما مع أنني كنت أريد أن نكون وحدنا ليكون للحديث معها رونقه الخاص. لكنني وافقت مضطرًا مع أن ذلك يجعل لقاءنا رسميًّا بعيدًا عن الهدف الذي خططت إليه، لكنها فرصة للتقارب لعلني أنجح في الاقتراب منها أكثر.

كانت صديقتها الأولى ريما؛ مسيحية لبنانية متزوجة من لبناني مسيحي، وتسكن في مغدوشة القريبة من صيدا. أما صديقتها الثانية فكانت سمر؛ فلسطينية من فلسطينيي لبنان، ولكنها متزوجة من لبناني، وتعيش في صيدا، ليس بعيدًا عن بيتنا في منطقة عبرا.

كنت أعرف صديقتيها في العمل ومعظم العاملات هناك، وعلاقتي جيدة معهن جميعًا، ولكن عندما بدأن يشعرن أنني على علاقة مع رانيا وأميزها عنهن، بدأن يغرن منها وينسجن الحكايات حولها.

في لقائنا الأول في مطعم صيدا على البحر كانت فرصة للحديث. كان الجو مرحًا استغليت فيه الفرصة لمعرفة المزيد عن زميلاتها في العمل، وفتح الباب أمام معارف جديدة، تلتها فيما بعد لقاءات أوسع مع أزواجهن.

بعد ذلك كسرت الحاجز النفسي، واستطعت أن أقنعها بالخروج معا وحدنا، في إحدى رحلاتنا إلى منطقة الجبل لزيارة منطقة حريصة حيث تمثال العذراء. صعدنا وحدنا في التل فريك. كانت فرصة لأتجاسر عليها وأضع يدي على كتفها، نظرت إلي وقالت:

- سامح.. انتبه حتى لا يرانا أحد.

قلت لها باسمًا:

- لا يوجد سوانا في التل فريك، فوق الأرض. انظري إلى الأسفل كيف يسير الناس.

وعندما نظرتْ طبعت أولى قبلاتي على خدها.

احمرت خجلاً كأنها لم تتوقع مني ذلك. نظرت إلي معاتبة وقالت:

- الزمْ حدودك.

- رانيا.. هل كثير على من يحبك أن يقبلك؟

- ولكن...

- ولكن ماذا؟ لا تخشي أحدًا. أنا أحبك. أنت الآن كل شيء في حياتي.

- بسرعة؟

- ولماذا الانتظار؟

- لم تعرفني بعد.

- عرفت عنك كل شيء.

- وماذا عرفت؟ يقينًا أنك لم تعرف شيئًا بعد.

- عيونك قالت لي كل الحكاية.

- كل الحكاية؟ مثل عيون بهية. لكني رانيا ولست بهية.

- عيناك تحملان أسرارك.

- وماذا اكتشفت بهما؟

- الكثير من اللآلئ.

- هل أنت متأكد أنها ليست مزيفة؟

- خبير بلغة العيون.

- يبدو أنك غواص ماهر.

صمتت ثم قالت:

- لكنك ما زلت تطفو على السطح. يقينًا عندما تغوص في الأعماق سوف تتمنى لو عدت إلى الشاطئ.

- أبدًا يا رانيا. أنا كما يقول نزار في قصيدته "رسالة من تحت الماء" التي غناها عبد الحليم حافظ: "الموج الأزرق في عينيك يناديني نحو الأعمق." رانيا.. أنت المرأة التي أبحث عنها. أنت زوجتي التي أبحث عنها.

- زوجتك قبل أن تأخذ رأيي؟

- ألك رأي آخر؟

- أنت شاب رائع يا سامح. كل فتاة تتمناك، ولكن...

قاطعتها:

- لا تكملي. وصلنا رأس الجبل.

نزلنا من العربة، وانتقلنا إلى حيث تمثال العذراء. صعدنا إلى الأعلى، ومن هناك رأينا بيروت والبحر.

قلت لها:

- انظري إلى البحر ما أروعه!

قالت لي:

- لكن في داخله الحيتان وأسماك القرش القاتلة.

- وفيه اللآلئ والأسماك الزاهية الألوان والجميلة.

فتابعت تقول:

- وعظام أناس أكلتهم الأسماك أو غدر بهم البحر فغرقوا في مياهه.

- لعلها عظام عشاق مثلنا كانوا يتمتعون بنسماته العليلة.

- فأغرقهم الموج الزاحف عليهم كالوحش الكاسر.

- أتخافين البحر إلى هذا الحد؟

- لا، ولكني أنظر إلى داخله تمامًا كالبشر الذين يسعدك أشكالهم الجميلة مع أن في دواخلهم كل أحقاد البشرية وأنانيتها وجشعها وطمعها.

- لماذا تنظرين إلى الأمور من الجهة الخلفية.

- لأنك من الخلف ترى الأشياء دون أن تراك، فتراها على حقيقتها.

- رانيا.. امرأة في سنك، وفي جمالك، ورقة حديثك، كيف تحمل كل هذه الحكم في داخلها؟ أهي فلسفة؟ هل هي دعوة للتشاؤم، أم أنك تحملين أحزانًا كامنة في داخلك؟

- هي كل ذلك. ألا تعلّم الأحزان الإنسان كيف يصوغ فلسفته الخاصة؟

اقتربت منها أكثر. طوقتها بذراعي. حاولت أن تفلت مني، لكن مسافة الحركة قليله فلم تفلح.

قالت لي:

- سامح.. أكره القيود.

- وهل ذراعي الذي تسندين إليهما رأسك قيد؟

- أنت جريء أكثر من اللزوم.

- أنا أحبك. أنت بالنسبة إلي كما هذا البحر إلى بيروت.

- جسر اتصال إذًا؟

- إن كنت تعدينه جسرًا، فهو الجسر الذي يربطني بالعالم، بالدنيا، إنه كما العيون التي بها يرى الإنسان الأشياء الجميلة.

- ولكن العيون لا تكفي لترى الأشياء الداخلية.

- سأراها بروحي التي تستمد من روحك سر بقائها.

- الله.. ما هذه الروعة!

- ألم أقل لك إنك كل عالمي. الشعراء يستمدون إلهامهم من حبيباتهم مرة كل حين، أما أنا فأستمد إلهامي منك كل ثانية. إنك كالطاقة الكامنة في الأشياء، والتي بدونها تتوقف الأشياء عن الحركة، فتحيل نهارها ليلاً.

تنهدت وقد أسندت رأسها إلى صدري دون أن تدري. كانت سابحة في بحر لا أعرف قراره.

قبلت رأسها من الجانب، تحسست شعرها القصير الناعم. همست لها في أذنها.

- رانيا.. هل تحبين اللون الأحمر؟

- أحيانًا أحب أن ألون الأشياء؟

- هل تحبين الرسم؟

- لا، ولكني أرى أحيانًا أن الألوان الطبيعية للإنسان خادعة، فأحب أن أضفي عليها لونًا جديدًا. الأسود أبيض، والأبيض أسود.

- إذا كان سطح الماء مليئًا بكل هذه اللآلئ، فكيف حال أعماقه؟

- قد لا تجد لآلئ تستحق الغوص.

- كيف؟

- لأن اللآلئ الحقيقية يجب أن تكون تحت الشمس على الشاطئ، في الحقول، في السهول، في حديقة البيت وليس في الظلام، أو تحت الأرض أو في أعماق البحار.

- لهذا وجدتك في حديقة بيتي. رانيا.. انظري إلى بيروت كم هي جميلة! ما أروع شكلها بعد أن لبست ثوب السلام ولملمت جراح أبنائها!

- ولكن صيدا أجمل. أنا أحب صيدا والجنوب. أعشق الذين صمدوا في وجه التتار، وأكره الذين تحاربوا لاقتسام لآلئ البحر.

- ولكن بيروت شقيقة صيدا. لماذا لا تعترفين بجمالها؟ انظري هناك.

لا أدري كيف طبعت قبلة على خدها الأيمن.

- سامح.. ألا يكفي ما تفعله يداك؟

نظرت إلى وجهها أمامي وقلت لها:

- رانيا.. أحبك...

اقتربت منها لأطبع قبلة على شفتيها، فأفلتت مني وصاحت:

- سامح؟

- ما الذي جرى؟

- العذراء سترانا. ستنتقم علينا. أنسيت نحن أصدقاء.

نزلت الدرج إلى الأسفل. لحقت بها، فسبقتني إلى حيث يقف الناس

يتفرجون على بيروت.

اقتربت منها وسألتها:

- لماذا هربت؟

- وماذا سيقول الناس؟ هذا مكان مقدس وليس مكاناً للعشاق؟

بعد ذلك عُدنا إلى صيدا. في الطريق سألتها:

- لم تردي علي عندما سألتك: متى تريدين إعلان خطوبتنا؟

- خطوبتنا مرة واحدة؟

- وهل هذا كثير؟

- سامح.. لا تتسرع.

- رانيا.. لا أستطيع العيش بدونك. أنت كل حياتي.

- سامح.. أنت شاب رائع، ولكني لا أفكر الآن بالزواج.

- لماذا يا رانيا؟

- لا أدري.

- أفي قلبك رجل آخر؟

- لا.

- إذاً أنا لست الرجل المناسب؟

- ولا هذه. أنت أمنية كل فتاة. أحب فيك ثقتك واعتدادك بنفسك.

- كلامك غير مقنع يا رانيا. إن كان ثمة شيء فأريحيني.

- هكذا أنتم الرجال تفسرون عزوف المرأة عن الزواج من رجل بأنها تحب آخر.

كلامها يحيرني. تقول إنني شاب رائع، وأمنية كل فتاة، ولكنها لا تريد الزواج. لماذا لا تريد المرأة الزواج؟ إما أنها لا تحب الرجل الذي تقدم لها، أو أنها تنتظر غيره، أو...

يا لهذه الـــ (أو!) لماذا؟

أمضيت طيلة النهار بعد أن أوصلتها إلى بيتها وأنا أفكر ما الذي يجعلها ترفض الزواج؟

ربما تحاول أن تتمنع وتريد فرصة أطول للتعارف.

ربما كان لها سابقًا علاقة مع شاب وتركها وصدمت منه. وهل علي أن أظل أبحث عن أسباب رفضها؟ لماذا أتعب نفسي كثيرًا بتلك التساؤلات المزعجة؟ إما أن أرفع الموضوع من رأسي؟ وإما ألا أستسلم لتمنّعها. من يدري؟ قد تتمنع وهي راغبة.

آن الأوان أن أدعوها إلى بيتنا والتعرف إلى أهلي لعل ذلك يساعد في التقارب فيما بيننا.

في اليوم التالي قلت لوالدتي:

- أمي.. أريد أن أدعو إلى البيت زميلة لي.

- زميلتك؟ من؟

- رانيا.. رانيا الصيداوي.

ضحكت أمي وقالت:

- أتحبها؟

- سأترك لك الحكم بعد التعرف إليها.

- حسنًا يا بني، لكنك تعرف أباك وتشدده. سيسألك ما علاقتك بها؟ لذلك أحضرها على الغداء وفي غير عطلة والدك. إن كانت نيتك لغير الزواج فلا تخدع بنات الناس.

- ولو يا أمي، لقد تعلمت منك ومن والدي ألا أخدع أحدًا.

كنت أحد خمسة أبناء، لي ثلاثة إخوة أكبرنا كامل ثم زاهي ثم وليد، وأنا رابعهم، أما أختي الوحيدة ليلى فهي أصغر مني سنًّا. كلهم تزوجوا ورحلوا إلى بيوتهم الجديدة إلا أنا. ظللت في بيت والدي أبحث عن قلب يحتويني.

في أول مناسبة قادمة دعوت رانيا إلى البيت.

قلت لها:

- أمي تدعوك إلى غداء خاص.

- تدعوني إلى البيت؟

- نعم إلى البيت. هل أنت غريبة عنا؟ لقد أصبحت جزءًا منه.

ضحكت وقالت:

- تبحث دائمًا عن منفذ ترمي حبالك منه. كأنك لم تستسلم؟

- لا استسلام في الحب إلا على شاطئ المحبوب.

- يعجبني إصرارك.

- ويزيدني تمنعك إصرارًا.

- أنا لا أتمنع، ولا أتدلل. أنا أحب أن أخفف عنك رحلة آلامك.

- آلامي تزيد عندما لا تسمحين لقاربي أن يرسو على شواطئ بحارك.

- ليس لي سوى شاطئ واحد مليء بالحجارة والأعشاب ولا يصلح أن يرسو فيه أحد.

- سآتيك عائمًا فوق الماء.

- ستأكلك الأسماك القاتلة.

- حينها سأغني من أغنية "قارئة الفنجان" لعبد الحليم حافظ:

"يا ولدي قد مات شهيدًا

من مات فداءً للمحبوب"

- سامح.. لا أريدك أن تموت، وأنا لا أستحق كل تضحياتك.

– كيف؟ أنت كل أحلامي الجميلة. المهم لا تنسي يوم الأربعاء سنذهب إلى البيت للغداء. سنطلب إذنًا من صاحب العمل ليسمح لنا بهذه الساعة.

فرحتْ أمي برانيا، واستقبلتها كأنها زوجة ابنها. كانت قد أعدت غداء يكفي لعشرة. فسألتها رانيا:

– ولماذا كل هذا الأكل يا أم كامل؟

– ولو! ما زلنا مقصرين. أنت ضيفتنا.

– ومن سيأكل كل هذا؟

– أنت.

– أنا؟

كانت فرصة مناسبة للحديث والتعارف. لم تترك أمي شيئًا عن أولادها إلا وقالته لرانيا:

– كل أولادي وابنتي ليلى تزوجوا. ابني كامل عمره الآن أربعون سنة، متزوج ولديه ولد وبنت ويسكن في بيروت ويعمل ميكانيكي سيارات. أما زاهي فعمره ٣٨ سنة، متزوج ويسكن في بئر حسن. لديه ثلاثة أولاد ويعمل في البناء. ابني وليد عمره ٣٤ سنة، متزوج ولديه بنت مثل البدر، يعمل طبيبًا في المستشفى الأهلي في صيدا. أما ليلى فقد تزوجها سليم الحريري وتسكن في منطقة بيروت. ولم يبق لنا في البيت سوى سامح، الذي سنفرح به قريبًا معك.

فوجئت رانيا، فقالت:

– أنا؟

– طبعًا أنت، وهل سيجد أجمل منك؟ بصراحة عندما رأيتك أحببتك، وقلت لنفسي لقد عرف سامح كيف يختار.

– إن شاء الله تفرحين به في حياتك.

– سأفرح به ومعك.

احمرّ وجه رانيا، ولكنها حرصت على عدم إحراج أمي، فقالت لها محاوله تغيير الحديث:

– سامح شاب رائع، الله يخليه لك. لكن يجب أن تردوا لنا الزيارة إلى بيتنا.

قالت أمي وقد حسبت أن دعوتنا دليل موافقتها:

– لنا الشرف أن نزوركم. حددي الموعد، وسأصطحب سامح وأباه للتعرف إلى أهلك.

– سنزيّن بيتنا بزيارتكم.

– أرأيت كيف تنتقي الكلمات بعناية؟ ألست محقًا بالتمسك بها؟

نظرت إلي رانيا وقالت لي:

– سامح.. لا تحرجني أمام والدتك.

وعندما ذهبت أمي إلى المطبخ لتحضر لنا الشاي بعد الغداء، نظرت إلي رانيا، وعضت على لسانها، وحركت حواجبها، وضحكت وقالت لي بإشارة من يدها:

- سأريك غدًا!!

لم تكن كاذبة، فقد أرتني العجائب. كلما حاولت التقدم نحوها خطوات فاتحًا قلبي زادتني محبة، ولكن عندما تسمع كلمة زواج ترفض بإصرار. قالت لي ذات يوم:

- اسمع ما رأيك بصديقتي فاطمة فهي رائعة؟

- رانيا.. أنا أحبك وليس فاطمة.

لم أعد أفهم سر إصرارها على عدم الزواج. قلت لنفسي يمكن أن يكون لها علاقة قديمة مع شاب ولم تعد عذراء! خفت أن أسألها ذلك حتى لا أجرحها. سكت، وقررت أن أدخل إليها من الباب الخلفي.

في زيارتنا إلى بيتهم القديم المتواضع، استقبلنا أخوها الوحيد زياد، وأمه نبيلة، فأبوها قد توفي في الحرب الأهلية العام ١٩٨٥. كان في بيروت هاربًا من الإسرائيليين وهناك قتله أمراء الحرب.

كانت صورته معلقة على الحائط. قال زياد عندما رآني أتفرج عليها:

- هذا والدي، توفي بالحرب العام ١٩٨٥. كنت صغيرًا مع أمي عند بيت عمي، وكان والدي مع أختي عندما اعترضته مجموعة من القوات اللبنانية،

أوقفوه، وبعد مشادة معهم قتلوه، ولم نسمع عنه إلا بعد شهر.

لم أشأ أن أحول اللقاء إلى بيت للعزاء. فترحمت عليه، ولعنت الحرب ومشعلها،. ولعنت الفتنة التي تحاول أن تطل برأسها علينا من جديد.

قال أبي وقد اكتوى بنارها.

– لا يريدون للفتنه أن تهدأ. قتلوا الشيخ رفيق الحريري، الله يرحمه، حتى يدفعونا للاقتتال.

فقال زياد معلقًا:

– لن نسمح لأحد أن يجر البلد للحرب مرة أخرى.

قلت لهم محاولاً تغيير الحديث:

– نحن سعداء بالتعرف إليكم.

فردّت أم زياد قائلة:

– نوّرتم البيت وأسعدتم أصحابه. نحن كما يقول المصريون: زارنا النبي.

– البركة فيكم جميعًا.

كانت سهرتنا جميلة. تعرفنا إلى عائلة رانيا وتقربنا منها. ستكون غدًا عائلتنا الموحدة.

كانت أم زياد خلال الجلسة تشكو الوضع الاقتصادي الذي ترك آثاره

عليهم، فالوالد متوفى، وزياد بلا عمل، يعمل يومًا ويعطل عشرة، يحاول الهجرة فلا يستطيع، عمره ثلاثون سنة، ولم يتزوج لأنه خالي اليدين، كان على علاقة مع فتاة لبنانية يحبها من كل قلبه، لكن أهلها زوجوها لأنه لم يستطع التقدم للزواج منها، ماذا يقدم لها وهو يأخذ مصروفه من أخته رانيا، رانيا هي البنك المركزي للبيت، كلهم يلاحقونها في طلباتهم، وبدل أن تحاول أمها الاقتصاد بالمصروف بسبب حالتهم السيئة فهي تزيد الأعباء عليها.

- رانيا.. ما رأيك أن نزور هذا الأسبوع عمتك في طرابلس.

- سنشتري لها هدية لأنني لم أزرها منذ فتره.

- رانيا.. أنا أحس أنني مخنوقة. تعالي نذهب إلى البحر في جونيه. ما رأيك هذا الأسبوع؟ سأدعو صديقاتي إلى البيت. اذهبي واشتري لنا لوازم الدعوة.

كانت رانيه مثقلة بالديون. اكتشفت لاحقًا أنها مدينة لمعظم العاملين معها في المكتب، حتى صاحب العمل نفسه، وكلما طلب أحد مبلغه، توسلت إليه أن ينتظر، وإن ألحّ اقترضت من غيره لتسدد قيمة دينه. كان الشباب يقرضونها طمعًا فيها.

المحل القريب من البيت توقف عن تزويدهم بالمواد الغذائية، فقد تراكمت الديون. والمطعم الذي كانوا يشترون منه الفول على الدين أصبح يطالبهم عن شهر كامل.

قلت في نفسي: لعل رانيا ترفض الزواج لهذا السبب. لذلك لم أحرجها، وأجلت الموضوع لوقت آخر.

كنت خلال زيارتنا قد اتفقت مع أبي أن يطرح على أمها وأخيها الموضوع، موضوع زواجنا على الرغم من معرفتي برأيها.

لم أستسلم لرغبتها. لدي إحساس قوي بأنها ستوافق هذه المرة.

رحبت الأم بنا وقالت للجميع:

– تشرّفوننا. أنا سأحكي معها، وإن شاء الله خير.

نظرت إلي رانيا، كأنها تعاتبني بعيونها. قالت لي:

– لقد تحدثنا بالموضوع.

ابتسمت وقلت لها:

– ننتظر الرد من أمك.

ثم استدرت إلى أمها وقلت لها:

– أم زياد.. أنا أملي بك وبزياد أن تقنعا رانيا، وسأضعها في عيوني.

فقال زياد:

– تسلم عيونك.

في اليوم التالي كنت مع زياد على كورنيش صيدا. أخذته في سيارتي إلى بيروت. تحدثنا طويلاً. كان شابًّا مرحًا، لكنه مثقل بهموم البطالة، فاتفقت

على أن أساعده على إيجاد عمل. تحدثنا عن رانيا وعن زواجي منها، وطلبت منه أن يكون الجواب إيجابيًّا.

قال لي:

– لن تجد رانيا أحسن منك ولو؟ اتركها لي. كل البنات يتمنعن وهن الراغبات.

سألته إن كانت موعودة بخطيب آخر، فأنكر وقال:

– لا يوجد لرانيا علاقة مع أحد، ولو كان لن أسمح لها أصلاً.

بعد العشاء سهرنا معًا، وأعدته إلى البيت.

جلس زياد مع أمه وأخته لمناقشة الموضوع.

كانت رانيا حاسمة معهما:

– لا أريد الزواج، فلماذا وعدتموهم بالرد؟ لقد بلغت سامح أنني لا أرغب بالزواج.

– لماذا يا بنيتي؟ (قالت أمها).

– لا أريد أن أتزوج.

– أهذا كلام؟ هل عينك على غيره؟

– لا، ليس على غيره؟ صدقاني كل ما في الأمر أنني لا أريد الزواج.

فقال أمها لها:

– وماذا ستفعلين غدًا بعد أن أموت وأخوك يتزوج. هل ستظلين عانسًا؟

– لا عانس ولا مانس. أنا لا أريد الزواج.

قال زياد لنفسه: ما هذا العناد؟ كيف سيساعدني في إيجاد عمل لو قلت له إنها رفضت؟! قال لرانيا:

– اسمعي يا أختي.. أنت هكذا تظلمين نفسك وتظلميننا معك.

فقالت أمها غاضبه:

– وماذا يهمها؟ أكيد اتفقت مع هذا الذي اسمه فادي وتريد اللهث وراءه.

فقالت رانيا:

– ما هذا الكلام؟ كلما حدثت مشكله تقولين لي فادي. قلت لك ليس بيني وبينه أي شيء.

فقالت أمها:

– يبدو أنني سألحق أباك بسببك!

بدأت رانيا تبكي.

– يا عمي لماذا تريدان تزويجي بالقوة.

– اسمعي يا رانيا.. لماذا لا توافقين على الخطوبة لمدة سنة مثلاً تتعرفين إليه ويتعرف إليك، وبعدها إن لم يعجبك تنفصلين؟

– ولماذا أعد الشاب وأربطه معي وأنا أعرف النتيجة مسبقًا؟

- يا بنيتي أنت تجربين. ماذا ستخسرين؟

فقال زياد:

- بهذه الفترة، سيساعدني على إيجاد عمل.

وقالت أمها:

- وقد يسدد بعض ديونك ويشتري لك بعض الهدايا.

- أهذا ما تفكران به؟!

فردّت أمها:

- ألا ترين حالنا المتردي؟ هل تريدين أن تظل الديون متراكمة عليك؟

كفت رانيا عن البكاء، فقالت أمها بعد أن مسحت دموعها:

- يا بنيتي.. الشاب يحبك، وأهله أوضاعهم الاقتصادية حسنة، وأخوه طبيب، وآخر متعهد بناء، وثالث ميكانيكي. فكري بعقلك. خطوبة لمدة سنة. جربي لعلك بعدها تقبلين به زوجًا. ألم تقولي إنه شاب رائع؟

هزت رانيا رأسها:

- نعم.. إنه أطيب شاب عرفته. إنه حلم كل فتاة.

صمتت عن الحديث، وتابعت تخاطب نفسها: إنه فارس أحلامي. ما أجمل ابتسامته وأعذبها! لكن، لا.. لا أستطيع.

سرحت رانيا في تفكيرها. تذكرت يديه وهي تطوقها من الخلف وهو

يهمس في أذنها: (رانيا أحبك.. أحبك). قالها بوله العاشق، وتمثال العذراء يشهد على ذلك، لكن... فجأة بدأت تصرخ: لا.. لا. ثم ذهبت إلى غرفتها وأغلقت الباب عليها.

تركتها أمها تستريح بعد أن شعرت أنها وافقت.

قال زياد لأمه:

– يا أمي.. لماذا تقول إنها معجبة به وترفض الزواج منه؟

– أكيد تحب فادي!

– أمعقول؟

– لم لا؟

– ولكن لو كانت تحبه ويحبها فلماذا لم يتقدم لخطبتها؟

– ربما هي تحبه وهو لا يحبها.

– وهل تتوقعين أن شيئًا بينهما؟

– ربما أهله يمانعون في زواجه منها.

– لماذا؟ هل سيجدون أجمل منها؟

– ربما لأنها سنّية وهم من الشيعة. ربما لأن أهله يروننا دون مقامهم لأن أباه تاجر مشهور في استيراد السيارات.

– وما الحل؟

- اتركها عليّ، سأجعلها توافق.

- الغبية. إنها فرصه لنسدد كل ديوننا.

- كيف؟

- سنطلب منه مهرًا.

- وماذا بعد أن تتزوج؟

- ستظل تساعدنا. ألسنا أهلها؟

- أحب أفكارك يا أمي. لقد وعدني سامح أن يحاول إيجاد عمل لي لدى أخيه الميكانيكي، وأنا أجزم أنها لو رفضت لن يجد لي عملاً.

- اطمئن. لن نفرط به، فهو ملاذنا الذي نزل علينا من السماء.

(٦)

كان فادي يعرف أنني أرغب برؤيتها، لذلك فقد دعاني لزيارته في بيت أهله، ودعاها هناك. قال لي:

- احضر مع أبنائك بدون زوجتك.

لكن كيف وعواطف لا تفارقني ماذا سأقول لها؟

قلت له:

- يبدو أنك دعيتها أيضًا؟

فقال لي:

- لا بد أنك ترغب برؤيتها، وقد أحببت ألا أحرجك أمام زوجتك.

قلت له:

- لا تقلق. دعها تتعرف إلى عواطف.

ابتسم وقال:

- أما زلت تحبها؟

- كلا. لقد انتهى كل شيء بيننا.

صحيح أنني تحدثت معها على الهاتف أكثر من مرة، وصحيح أنني

راسلتها كثيرًا عبر البريد الإلكتروني، لكنني دائمًا كنت أتصنع الكلام معها. كنت أجاملها. لم نكن نتحدث شيئًا عن الماضي، كأن الماضي أصبح منطقة حرام علينا الاقتراب منها. لم أبث لها شوقي ومحبتي. لم أذكرها بمشاعري القديمة نحوها ولا بمشاعرها القديمة نحوي. أرادت أن نكون إخوة وأصدقاء. يا له من طلب بسيط وإنساني. لكن، هل من السهولة أن يتحول العاشق والزوج والمحب من عاشق إلى أخ. تبدل المشاعر بالاتجاه الآخر صعبه وتحتاج إلى وقت طويل.

كيف يمكن أن تعود مشاعري إلى الوراء ولو درجة واحدة؟ إنها مثل النزول من قمة الجبل إلى قاع الواد بسرعة على الرغم من الصخور والحجارة المتناثرة في الطريق.

الطريق وعرة، وكلما أسرعت الخطى زادت احتمالات تعثرك؛ هل ستصل سالمًا، أم مليئًا بالجروح؟ لا أدري ما حقيقة مشاعرها الداخلية، وكلما حاولت فهمها اكتشفت أنني لم أغص عميقًا في داخلها، وأنني ما زلت قريبًا من سطح مشاعرها وعواطفها، فهي كالمحيط الواسع المظلم القاع، حتى إذا وصلته لا تستطيع رؤية شيء في قاعه، فتعود دون أن تكتشف شيئًا. هل أغوص من جديد حاملاً معي كشافات إضاءة تساعدني على الرؤية؟ وكيف أستطيع الغوص في ثنايا قلبها ومشاعرها وأحاسيسها وأنا بعيد عنها لا أعيش معها، ولم أعد قريبًا منها، حتى مراسلاتنا أصبحت نادرة، فهل أكتفي بما اكتشفت، أم أقلق نفسي بما بقي خافيًا عني؟ أليس الأفضل ألا أكتشف ما في أعماقها؟ من يدري؟ لعلي إن اكتشفته أصاب

بالذهول، أو تصدمني الحقيقة كما صدمتني هي سابقًا.

دخلت بيت أهل فادي الذي أعرفه. لم يتغير شيء فيه. استقبلنا مع أمه وأخته الكبيرة ووالده. رحبوا بنا جميعًا وسلموا علينا، وقبل أن نجلس دخلت علينا رانيا بشعرها القصير مثل شعر الأولاد.

ها هي أمامي بعد سنوات الفراق التي زادت عن عشرة. تغيرت كثيرًا عما عرفتها. ما الذي غيرها؟ هل الوحدة المقيتة من ملأت خدودها بالتجاعيد؟

نظرت إليها. نظرت إلي. كانت عيون عواطف تراقبنا بدقة، تنظر إلي وإليها في اللحظة نفسها. لم أبتسم لئلا تغضب عواطف مع أنني كنت في داخلي سعيدًا أن أراها بعد غياب طويل. كيف أكون سعيدًا وكل ذكرياتي معها مليئة بالآلام؟

سلمت علي بشوقٍ ممزوج بالفتور، ثم سلمت على زوجتي عواطف، وهناك كانت المفاجأة؛ عانقت رانيا عواطف وقبّلتها، ورحبت بها. أفي هذا رسالة لي؟ ثم سلمت على الأولاد واحدًا واحدًا وهي تسأل كلا منهم:

- ما اسمك؟

عانقتهم، وعلقت قائلة:

- حلوين مثل أبيهم!

انتبهت لعواطف، فأكملت تقول:

- وأمهم.

نظر الأولاد إليها وسألوني:

- بابا من هذه؟

- هذه... خالتو رانيا.

فقال لي علي هامسًا:

- لكنك لم تحدثنا عنها سابقًا!

قلت له بسرعة:

- سأحدثك يومًا ما عنها وعن عمو فادي، فهذه زوجته.

ماذا أقول له أكثر من ذلك الآن؟ أأقول له: هذه كانت زوجة أبيك يومًا ما؟

كانت سهرة حلوة في بيت أهل فادي. شعرت أن عواطف قد ارتاحت مع رانيا وصارتا مثل زميلتين. هل تمثل كل منهما على الأخرى؟ ومن يدرينا ما تضمر كل منهما لزميلتها!

في اليوم التالي دعاني فادي وحيدًا لنتناول الكعك وشراب الجلاب على كورنيش صيدا كما كنا نفعل قبل هجرتي من لبنان.

قال لي بعد حديث طويل:

- أما زلت تحبها؟

- هي صديقة وأخت كما أرادت.

ضحك ثم قال:

- ولكن نظراتك إليها يوم أمس توحي بغير ذلك.

- لعلك تقرأ نظراتي بعكس ما توحي.

- سامح.. هذه المرأة لا تصلح للزواج ولا للحب. عقدتها ماثلة فيها، وعلى كل حال، إن كنت تريدها فأنا جاهز لطلاقها.

- أنا؟ أنسيت أنني متزوج؟

- وماذا في ذلك؟ الشرع أحل لك اثنتين.

- لا يا فادي، أنا مكتف بواحدة. لقد عبأت عواطف مكانها، وسدت الفراغ العاطفي الذي خلقه حب رانيا المتبخر.

تنهدت قليلاً ثم قلت له:

- صدقني يا فادي لم أعد أحلم بها، ولو لم أكن متزوجًا لما تزوجتها. لعلي أخطأت عندما فتحت لها قلبي، فقد عشت مرحلة صعبة أثّرت على مشاعري وذهني، وسيطرت على كل حواسي، فلم أعرف كيف أتصرف.

قال لي:

- لا تهتم بالماضي كثيرًا، وانطلق نحو المستقبل. أولادك رائعون جدًا. لقد كانت تبكي يوم أمس بعد أن غادرتم البيت.

- تبكي؟ لماذا؟

- لعلها شعرت بالندم؟ لعلها شعرت بأن أولادك كان يمكن أن يكونوا أولادها الآن لو لم تصر على عنادها.

قالت لي:

- ما أروع أولاد سامح!

فقلت لها:

- فرخ البط عوام. آخ يا رانيا لو لم...

لم تتركني أكمل الحديث فقاطعتني قائلة:

- الحياة قسمة ونصيب، وأنا سعيدة أنه حقق أحلامه وتزوج ورزق بأولاد حلوين مثله.

- سكتت ثم قالت:

- زوجته عواطف لطيفة، ما أروعها! جيد أنها تتحدث العربية على الرغم من أنها ولدت في أمريكا.

(٧)

في الصباح الباكر أعدت الأم الفطور، وأيقظت رانيا لتذهب إلى العمل.

قبلتها أمها، ودعتها إلى تناول الفطور قبل التوجه إلى الشركة، ثم قالت لها وهي تتناول الفطور معها:

– رانيا.. حبيبتي. نحن لا نريد إلا مصلحتك، وإن ظللت على موقفك بعد فترة الخطوبة سنخلصك منه.

– وعد؟

– وعد. أنا أمك نبيلة. وحياة هذه النعمة (وأشارت إلى الأكل على الطاولة) إن لم توافقي لأخلصك منه.

وافقت رانيا، واستسلمت لرغبات أمها، وعندما ذهبت إلى العمل كانت راضية، وسعيدة باتفاقها.

فرحت الأم بموافقة رانيا، وبعد أن غادرت رانيا البيت، أيقظت زياد وأبلغته الخبر، وطلبت منه أن يتصل عند الظهر بوالد سامح ويبلغه موافقة الأهل المبدئية، وعندما نلتقي بهم سنحكي لهم مطالبنا.

– ماذا لو رفضوا؟

– لا تخف. لن يرفضوا، فسامح متعلق برانيا. يبدو أنها دخلت قلبه. إنه مستعد للتضحية بكل شيء من أجلها.

– صدقيني إنه شاب طيب، وأنا ارتحت له. لا أعرف لماذا أختي رانيا متصلبة، ألأنه أكبر منها سنًّا؟

– أكبر منها بسبع سنوات، فهل تريده في مثل سنها؟ أنا تزوجني والدك

وكان أكبر مني بعشر سنوات.

فرح سامح بالخبر السعيد، ولم يعترض على أية مطالبن بل إنه جلس مع رانيا وبدأ يسجل كل الديون المتراكمة عليها وقرر سدادها عنها هدية منه لخطيبته. كان المبلغ حوالي خمسة آلاف دولار. نزل معها إلى السوق، سوق الذهب في صيدا، وهناك اشترى لها أجمل الهدايا، وزاد على ذلك بعض الأساور. قرر إقامة حفلة صغيرة للأقارب من العائلتين في نهر الفنون، الواقع عند نهر الكلب في شمال بيروت. كان من بين المدعوين صديقاتها في العمل سمر، وريما، وزوجاهما، ورئيس الشركة. كان الجميع مسرورًا بالخبر، والكل يبارك للعروسين. لكن رانيا لم تكن تتصرف كالعروس. لم تكن سعيدة بالاحتفال والأضواء. زميلاتها شعرن بذلك، لكني لم أشعر بشيء. ربما كنت من السعادة لدرجة لم أعد أميّز ما يدور حولي، كمَن على عينيه غشاوة.

كانت رانيا كل نصف ساعة تذهب إلى الحمام، وفي أحد المرات لاحظت أن زميلتها سمر لحقت بها، وبعد أن عادتا كانت سمر تهمس في أذن ريما، وتضحكان، وينظران إليها.

أما في المرة التالية فقد لحقت ريما بها إلى الحمام، وبعد فترة طويلة عادت ريما وجلست تهمس في أذن سمر، وفجأة بدأت سمر تهمس في أذن زوجها. لم أعد أهتم بثرثرات النساء.

قلت لأم زياد:

- يا أم زياد.. ما لي أرى رانيا كل لحظة تذهب إلى الحمام؟ أهي مريضة؟

فقالت لي باسمة:

- لا تقلق عليها، فهي خجولة بوجودها هنا. رفقًا بها. أنت تعرف الوضع.

عندما عادت رانيا لم تجلس بجانبي، وذهبت لتجلس مع صديقاتها، فانتقل زوج سمر الفلسطينية إلى جانبي. قال لي:

- فرصة سعيدة. تعرفنا إليك. أدعوك لزيارتنا في البيت.

وعدته بعد أن تبادلنا أرقام الهواتف.

خلال الاحتفال كان أحد المطربين في الصالة يغني، فطلبت منها أن نرقص معًا. وافقت بعد تمنّع، وكلما اقتربت منها ابتعدت، وبعد فترة قصيرة طلبت الاكتفاء لأنها تعبت.

وقبل أن نختم احتفالنا، كان الشباب يقفون للدبكة، فوقفت سمر وريما وزوجاهما، وذهبت رانيا معهم تدبك كنجم الحفل، ولم يبد عليها التعب كما قالت. تركتني مع بقية ضيوفي وحيدًا.

انتهى حفلنا، وقررنا جميعًا مغادرة المكان، فقد اقتربت الساعة من الواحدة ليلاً.

أحمد الله أن اليوم التالي كان يوم الجمعة؛ عطلتنا الأسبوعية.

لاحظت والدي وهو في الطريق إلى خارج المحل يتحدث مع ريما ويعطيها رقم هاتفه.

ودعناهم جميعًا، وتوجه كل منا إلى بيته. أصرت رانيا أن تريحني من توصيلها وتوجهت مع زميلتها سمر التي تسكن قريبًا منها هي وزياد وأمها.

في اليوم التالي طلبني والدي لاجتماع خاص معه، وحتى لا يعرف أحد بمضمون حديثه، فقد ذهبنا بالسيارة إلى أحد الأماكن على كورنيش صيدا قريبا من "بيتزا هت"، وبدأ يحدثني:

– اسمع يا سامح.. لقد ذهبت ونفذت كل طلباتك، ولا يوجد أب لا يتمنى السعادة لابنه. خلال الاحتفال، ونحن في الطريق إلى الخارج، تحدثت معي سمر الفلسطينية صديقة رانيا، وقالت لي مع زوجها: "عمي أبو كمال. أريد أن أتكلم معك عن أشياء مهمة عن رانيا قبل أن يندم سامح على فعلته."

تمسمرت في مكاني وقلت لها: "وماذا تقصدين؟" فقالت لي: "الوقت غير مناسب للحديث. أعطني رقم هاتفك الخلوي وسأتصل بك، يمكن أن أجلس معك بوجود زوجي وأحدثك بكل شيء." بصراحة يا بني، لم أنم تلك الليلة، وفي اليوم التالي زرتها في بيتها، في طلعة الغازية في رأس الجبل، وقالت لي أشياء أذهلتني.

كنت أستمع لأبي وأنا قلق مما يقول، فسألته على الفور:

– ماذا قالا لك؟

فقال:

– قالت إن رانيا لا تحبك لأنها على علاقة مع شاب اسمه فادي، وكانت خلال حفل نهر الفنون، تذهب إلى الحمام لتهاتفه، وتقول له إنها لا تريد الزواج منك.

بهتُّ من كلامه. احمر وجهي، وتذكرت حركاتها خلال الاحتفال وهروبها مني. لكني لم أصدق أنها لا تريد الزواج، فكيف وافقت إذاً؟!

قلت لوالدي وأنا مذهول مما يقول:

– أجاد فيما تقول؟

– وهل أكذب عليك يا بني؟

– أستغفر الله يا والدي. لا أقصد، لكن ألا يمكن أن تكون تريد الإيقاع بها؟

– لماذا؟

– ربما لأنها تغار منها، فهي أعلى منها درجة في العمل ومقربة من المدير.

– ولكن يا بني، تدّعي أشياء خطيرة. لماذا لا تتأكد بنفسك؟ هل تحب أن تجتمع معها؟

هززت رأسي، وقلت لوالدي:

– سأتابع الموضوع مع سمر.

كنت كالمجنون. لا أعرف ما العمل؟ هل أصدق؟ هل أكذب؟ لماذا وافقت إذًا؟ مَن فادي هذا الذي تقيم علاقة معه؟ لماذا لا تتزوجه؟

في اليوم التالي توجهت صباحًا إلى البنك ولم أمر على رانيا، قلت لها: إنني كنت في مشوار بعيد عن البيت، وطلبت منها أن تستقل السرفيس إلى مكان عملها.

اتصلت سرا مع صديقتها سمر، واتفقنا على موعد بعد الظهر بعد الدوام في الشركة وبعد أن تغادر رانيا الشركة حيث تغادر في العادة قبلهما. دخلت إلى غرفة المحاسبة في الطابق الأول، فكانت ريم وسمر وحدهما. أغلقت الباب وقلت لهما:

– ماذا يجري من ورائي؟

قالت سمر:

– سامح.. رانيا لا تريدك. لقد كانت خلال الحفل تتصل بفادي طوال الوقت بالحمام وأنا أسمعها؟

– وهل هذا يكفي أنها على علاقة غرامية؟

– لقد كانت تقول له: "حبيبي أنا لا أريد الزواج. أهلي هم الذين ضغطوا علي."

لم أصدق. احمرّ وجهي. شعرت بالأرض تدور بي.

قالت ريما:

– لقد أخبرتني رانيا أنها وافقت على الزواج منك باتفاق مع أهلها خطوبة لمدة سنة لتساعد أخاها في الحصول على العمل، ولتسدد عنها ديونها.

– هكذا قالت رانيا لك؟

– بل قالت ما هو أبعد من ذلك. أتذكر أساور الذهب والمجوهرات التي اشتريتها لها كهدية الخطوبة؟

– نعم.. ماذا بها؟

– لقد باعت أمها نصف الأساور، وأخذت الفلوس لتصرفها على ملذاتها.

– معقول؟

– بسيطة.. اسألها عن الأساور. لقد اشتريتها قبل أسبوع فقط.

– ومن فادي هذا؟

– لا أعرف اسمه الكامل، لكنه من سكان الغازية، وهذا رقم سيارته (804356) يسوق سيارة (بي. أم) زرقاء اللون.

– وهل تعرفان علاقتها به من قبل؟

– نعم.

– ولماذا لم تخبراني؟

– لم نعرف أنك ستتزوجها، وهي التي تقول ذلك، وليس نحن.

خرجت من الشركة مستأذنًا، وذهبت أبحث في كل الغازية عن تلك

السيارة فوجدتها. كانت تقف أمام عمارة كبيرة من عدة طوابق. سألت أحد المارين عنها، فقال: هذه سيارة فادي عبد الله، ابن صاحب معرض السيارات في الطريق إلى صيدا.

هذا إذًا فادي، الذي تقيم رانيا علاقة معه. معقول؟ لماذا كذبت علي؟ لماذا وافقت على الزواج؟ لماذا خرجت معي من البداية؟ ما الهدف؟ هل كانت ستخدعني؟ كيف تخدعني وهي التي رفضت الزواج من البداية، وأنا الذي أصررت عليه؟ هل كان رفضها تمثيلية؟ هل أحكمت خداعها لي؟

كلما فكرت بالخداع أتساءل: لماذا تخدعني؟ ففادي كما يظهر ابن تاجر غني وميسور الحال، فلماذا تبحث عنه؟

لا أفهم شيئًا، لكن يجب مواجهتها بالحقيقة. يجب معرفة كل شيء. لا أصدق ماذا يحصل! لا أصدق! هل ينهار حبي بهذه السرعة؟ أهذا ما قال عنه أبو تمام:

"نقل فؤادك حيث شئت من الهوى

ما الحب إلا للحبيب الأول"

هل كان حبي لها خدعة؟ كذبة؟ سكرة؟ لا يظهر عليها أنها كذلك. لم تسألني عن شيء طيلة علاقتنا. لم تسأل عن هدية، لكن.. ما سر هذا الكبرياء؟ أتلعب بي؟ لم أفلت من تلك الأفكار اللعينة التي ظلت تطاردني، ولكني بعد فترة هدأت نفسي، وبدأت أفكر كيف سأواجهها.

في اليوم التالي قابلتها وحدها. كنا نجلس قرب البحر نتسامر. قلت لها:

- لماذا طلبت أن تكون فترة خطوبتنا طويلة؟

- كي نتعرف إلى بعض أكثر.

- ما الذي تبحثين عنه في سامح؟

- ما بحثت عنه وجدته.

- ولماذا الانتظار؟

- يقولون فترة الخطوبة أفضل فترة يتمتع بها العروسان.

قلت لها وأنا أصطنع ابتسامة:

- رانيا.. لا أدري ماذا سأفعل بدونك. أشعر أنك كل حياتي. ما رأيك أن تذهبي إلى الكافتيريا هناك وتشتري شرابًا باردًا في هذا الجو الحار؟

وعندما وافقت سألتها:

- هل معك ما يكفي من الفلوس؟

- لا لم يبق شيء؟

- صرفت كل ما أعطيته لك؟

- أحيانًا زياد أو أمي يحتاجان إلى مصاريف.

هززت رأسي، مع أنني أعرف أن (زياد) قد بدأ عمله لدى محل أخي الميكانيكي.

قدمت لها عشرين ألف ليرة (حوالي 13 دولار) زيادة لها. عندما أرادت الذهاب إلى الكافتيريا، قلت لها أعطني هاتفك أريد الاتصال بالبيت، ولا يوجد معي وحدات كافية.

عندما نظرت إلى الهاتف لم يكن نفسه الذي اشتريته لها. كان هاتفًا قديما، سألتها:

- ماذا حصل لهاتفك؟

- أخذته أمي وأعطتني هاتفها.

ابتسمت وقلت لها:

- من أجل الأم نقدم كل شيء.

توجهت رانيا إلى الكافتيريا وأنا افكر بالهاتف الذي أخذته أمها مع أنه هدية من عريسها. أخذت الفلوس التي أعطيتها إياها!!

أمور جديدة بدأت تتكشف لي.

بحثت في هاتفها بسرعة عن الأرقام التي اتصلت بها. كان أحد الأرقام مسجلاً باسم فادي. اتصلت به في يوم واحد خمس مرات. أغلقت الهاتف، وازددت غضبًا.

عندما سألتها إن كانت على علاقة مع أحد أنكرت، لكنني اكتشفت اليوم كذبتها، لكن الذي يحيرني لماذا تفعل ذلك؟ هل يقبل فادي أن يكون على علاقة مع فتاة تقيم علاقة مع شاب آخر؟ أو مخطوبة؟ أترى هو الذي

يخدعها، ويريد أن يقيم علاقة معها خارج إطار الزواج؟ أتكون ضحية من ضحاياه؟ وفتاة من فتياته الكثيرات؟

بعد أن عادت بعصير الليمون البارد، بدأت أسير معها على الشاطئ.

قلت لها.

– ما الذي تبحث عنه الفتاة اللبنانية في فارس أحلامها؟

– قالت الشخصية، الكبرياء، الحب، الوسامة، الغيرة.

– الغيرة؟

– نعم.. تريده أن يغار عليها.

– وهل تعتقدين أنني أغار عليك؟

ضحكت.

– كلك غيرة وحب. أنت فارس الأحلام الذي يكتب عنك في الروايات.

ضحكت، وتعجبت لإجابتها.

قلت لها:

– هل يمكن للمرأة أن تحب رجلين في وقت واحد؟

لم تتوقع سؤالي. صمتت ثم قالت:

– لا.. لن تحب رجلين أبدًا في وقت واحد.

فأطبقت عليها بسؤالي الهجومي:

- هل لي أن أسأل إن كنت تعرفين فادي عبد الله؟

صدمت بسؤالي. احمر وجهها. قالت:

- فادي عبد الله، هذا ابن صاحب السيارات من الغازية.

- هل تعرفينه؟

- أعرفه. إنه يسكن قريبًا من مكان عملي.

- ألك علاقة معه؟

غضبت لأسئلتي. قالت:

- ما هذه الأسئلة يا سامح؟

قلت لها بصراحة:

- أريد أن أعرف سر علاقتك به، واتصالك به، وخروجك معه؟

- زميل لا أكثر.

- زميل؟ لقد اتصلت به يوم أمس خمس مرات. لم تتصلي بي ولو مرة.

- هل تتجسس علي؟

- ألم تقولي إن الفتاة تحب أن يغار حبيبها عليها؟

- نعم.. أن يغار، لا أن يتجسس!

– وهل تريديني أن أغلق عيوني وأذني عما أراه وأسمعه عن علاقتك بفادي؟

– ليس بيني وبينه علاقة خاصة.

– رانيا.. هل رأيته يوم أمس؟

– نعم.

– وتقولين نعم؟! ما الذي تهدفين إليه من علاقتك الثنائية معي ومعه؟

– سامح.. لا تخاطبني بهذه الطريقة.

خلصت دبلتها ورمتها على الكورنيش أمام أحد المتنزهين مع زوجته وأولاده، ثم غادرت المكان سيرًا على الأقدام. التقطت الدبلة، ولحقت بها. أوقفتها لأتابع الحديث معها.

فقالت:

– ابعدْ عني. قلت لك لا أريد الزواج.

تركتها تذهب. ركبت سيارتي وغادرت المكان غاضبًا.

ذهبت إلى البيت. حدثت أمي وأبي عما حصل، وقررنا إنهاء العلاقة، واسترداد الهدايا والذهب والفلوس التي قدمتها مهرًا لخطبتها. اتصلت بالشيخ الذي كنا قد اتفقنا معه على عقد القران، وطلبت منه تأجيل الموضوع حتى أبلغه بالموعد الجديد.

اتصلت بأخي زاهي وأحضرته معي وذهبنا معًا إلى صديقي أسعد أبو رمان الذي أثق به. شرحت لهما الأمر، وقلت لهما ما نويت عليه.

توجهنا إلى بيت رانيا. كانت هناك مع أمها. لم تستقبلني، وتركت أمها ترحب بنا. تركت أخي وصديقي أسعد يتحدثان مع أمها، وذهبت إلى غرفتها. طرقت الباب. قلت لها:

- افتحي. يجب إنهاء العلاقة الآن؟

فتحت الباب. دخلت إلى الغرفة أفتح جوارير خزانتها. فسألتني:

- عم تبحث؟

- عن الذهب والهدايا التي قدمتها لك.

ذهبت إلى مكان إخفائها وقدمتها لي. فتحت الصندوق فكان ناقصًا عدة أساور ذهب.

سألتها:

- أين بقية الأساور؟

- أخذتها أمي.

- أمك؟ لماذا؟

- باعتها. أنا سأسددها لك؟

- من أين؟ من فادي؟

- اخرس. لا أسمح لك أن تهينني.

- أنا أهينك؟ وماذا تسمين خداعي كل تلك الفترة؟

حملت الذهب والهدايا كلها، وقلت لها:

- أريد كل الملابس والهدايا، حتى الملابس الداخلية الذي تلبسينها الآن. لعل فادي يشتري لك بدلاً منها.

عدت إلى أمها وقلت لها:

- ألم تعرفي علاقة ابنتك بفادي عبد الله؟

فوجئت أمها وأنا داخل عليهم بصندوق الذهب والمجوهرات.

سألتني:

- هل جئت تقتحم علينا البيت؟

- جئت لأنهي رحلة الخداع التي رسمتموها علي بإتقان.

- من أين ندفع لك الفلوس؟

- من فادي عبد الله.

- سامح.. يكفي إهانات. هل تريدون التهجم على نساء في البيت؟ هل تحتاج المسألة إلى ثلاثة شباب كأنك في معركة؟ كان يكفي أن تأتي لوحدك.

لم أتحمل كل كلمات التذلل. قلت لأخي وزاهي وأسعد:

- هيا بنا. سأعود فيما بعد لأحمل بقية أغراضي.

غادرت المكان وأنا منفعل غاضب.

قال لي صديقي أسعد:

- يا سامح.. لا تزعل. ألف بنت تتمناك. قل لي إنك تريد الزواج وأنا سآخذك إلى أكثر من عروس، وما عليك إلا أن تختار من يحبها قلبك. لا تهتم منها، ولا من عائلتها. لا أدري لماذا ناسبت هؤلاء البشر!

فقال زاهي معقبًا:

- ما أوقح أمها! يا لطيف! جالسة معنا ونصف صدرها عار.

كنت منفعلاً لدرجة أنني لم أعرف ماذا أقول. كل ما كان يهمني ليس الهدايا، ولا الديون التي سددتها عنها، ولا الذهب، ولكن لماذا خدعتني؟ كل الإجابات التي تخطر على بالي غير مقنعة بتاتًا. ليس سوى إجابة واحدة مقنعة. إنه يتسلى بها، وهي تحبه، وطبعًا يوهمها بحبه لها وعدم قدرته على الزواج.

يا لهذا المخدوع! ليت أني اقتنعت بكلامها وأبقيت على علاقة الصداقة معها. صداقة؟ أية صداقة؟ مثلها لا يصلح أن يكون صديقًا. كان عليها أن تكون واضحة من البداية وتشرح لي ما يدور في الخفاء.

الحب؟ يبدو أن لا حب في هذا الزمن. إنه زمن الخيانات.

قطع على حيرتي زاهي مرة أخرى وقال لي:

- سامح لا تندم على شيء. الحياة مليئة بالمفاجآت.

وقال أسعد معقبًا:

- يا سامح.. ما رأيك غدًا الساعة السادسة مساء، سأذهب أنا وأنت في زيارة إلى أحد الأصدقاء لترى بناته، من تعجبك نخطبها لك.

لم أعترض على كلامه. كنت في وضع لا يسمح لي بالرفض. كنت أريد الانتقام منها.

قلت له:

- حسنًا. سأحضر إلى بيتك لنخرج معًا.

في اليوم التالي كانت كل الشركة تتحدث عن الخبر، فقد نشرت صديقاتها خبر فسخ الخطوبة، وأصبحت رانيا مثار تعليقات الجميع، فتغيبت عن العمل، لكن صاحب العمل اتصل بها، وأعادها إلى العمل، فقد كانت سكرتيرته المفضلة، وكان معجبًا بها. استغل وضعها الجديد ومشكلة فسخ الخطوبة، وقال لها:

- لا تهتمي به، فهو لا يستحقك أصلاً.

وبعد أن كسب ثقتها، عرض عليها الزواج. فوجئت بسؤاله:

- الزواج؟

- نعم.. ألديك مانع؟

- ولكنك متزوج؟

- الدين حلل لنا الزواج بأكثر من واحدة. سأفتح لك بيتًا.

كانت رانيا تريد لو تصفعه على وجهه، لكن كيف وهو صاحب العمل ومنه تقبض راتبها. لم تشأ أن تغضبه، فقالت له:

- صعب جدًّا أستاذ أحمد. أنا الآن متعبة. لا أريد الحديث بذلك.

ابتسم وقال لها:

- لا تردي الآن. فكّري على راحتك.

لم يكن مستعجلاً، فهي عنده طوال الوقت، ولا بد أن توافق يومًا ما.

لم تكن رانيا تعرف أن صديقاتها وراء كشف علاقتها بفادي، فعندما سألنها عن سبب فسخ الخطوبة قالت:

- لا أريد الزواج. قلت له من البداية. أنا لا أحب أن يتحكم بي رجل.

فقالت لها ريما:

- هل تعتقدين أنه عرف بعلاقتك مع فادي؟

- فادي؟ وماذا لو عرف؟

قالت لها سمر:

- ولو يا رانيا، كنت تقولين عنه إنه شاب لطيف وحلم كل فتاة.. أنسيت؟

– نعم.. ما زلت أقول إنه شاب رائع، لكني لا أريده.

فعلقت صديقتها اللبنانية نسرين:

– طبعًا تريدين فادي. عندك حق. فادي سيارته (بي أم) الجديدة تأخذ العقل.

فقالت سمر:

– لو كان يحبها لتقدم للزواج منها.

فردت رانيا:

– قلت لك: لا أفكر بالزواج.

فقالت نسرين ساخرة:

– رانيا تريد "بوي فرند" مثل الأمريكان والأوروبيين. لماذا الزواج؟ كل ما تريده تحصل عليه بدون زواج.

فردت رانيا بغضب:

– اخرسي يا وقحة.

فقالت ريما باللهجة نفسها:

– وماذا لو تركها؟

فقالت سمر:

- بسيطة تبحث عن غيره.

غضبت رانيا وسألتهن:

- هل تتآمرن علي؟

قالت نسرين:

- نتآمر؟ لماذا نتآمر يا رانيا. أنت التي تتآمرين على خطيبك سامح. لماذا وافقت عليه ما دمت على علاقة مع فادي؟

- هذا ليس من اختصاصك.

فقالت لها سمر:

- هل هناك فتاة في يوم خطبتها تتصل بصديقها من الحمام وتقول له: "تقبرني..."

احمر وجه رانيا وسألتها:

- هل كنت تتجسسين علي؟

- أبدًا، ولكن صوتك معه على الهاتف كان مسموعًا للجميع. أنسيت؟ في الحمام "تقبرني... باي.

بدأت رانيا تبكي، وبدأت تتمتم:

- لا أحد يريد أن يفهمنيز لا أحد يريد أن يفتح قلبه لي. والله لم أخدع أحدًا. سامح شاب لطيف. شاب رائع. لكني منذ البداية قلت له: لا أريد

الزواج. أريد أخًا وصديقًا. لكنه ظل يطاردني.

فقالت نسرين ضاحكة:

- جنّ بك. لا أدري علامَ.

فقالت ريما معلقة بلهجة بدوية:

- الولد عاشق يا بنت.

فيما ردت سمر بعد أن غمزت نسرين بطرف عينها:

- ليلى العامرية؟ لا. لا. لا. ليلى الصيداوية.

جن بشعرها الأحمر، يبدو أنه يحب الحُمْر.

فقالت نسرين:

- قصدك حمار؟

ضحكن جميعًا، فقالت رانيا:

- كفى.. لا أريد سماع كلمة.

فقالت نسرين:

- لماذا تصرخين، نحن نمزح معك. بلا سامح وألف سامح. والله فادي مثل القمر.

لم تستطيع رانيا تحمل المزيد من التعليقات. حملت حقيبتها وتركت

المكان. وعندما علم صاحب العمل ذلك جن جنونه، لكنه حاول تكثيف الضغط عليها فوضعها بين خيارين؛ أن توافق على الزواج منه لتوقف الإشاعات ضدها أو أن تترك العمل. فتركته وبقيت في البيت، ما أثار أم زياد عليها.

– تركت العمل؟ ومن أين سنعيش يا ست رانيا؟

– كفى يا أمي.. حتى أنت، وماذا أفعل؟ ها هو زياد يعمل.

– زياد دعيه في حاله، فصاحب العمل أخو سامح قد يفصله، وأيضًا هو شاب ويريد أن يوفر ليتزوج. أنت التي أضعت عريسًا من يدك؟ ماذا سينفعك فادي الآن؟ هل سيتقدم لخطبتك؟

غضبت رانيا من أمها. تركت البيت، وخرجت تسير في الشوارع لا تدري إلى أين؟ وهل يعرف الإنسان كيف يتخذ قراره وهو في قمة الغضب. لم تكن رانيا تعرف أن الأمور ستصل إلى تلك النتيجة. أصبحت في نظر الناس متهمة مع أنها ترى أنها الضحية. أصبحت مضغة في أفواه العاملين في الشركة وأقاربها الآخرين. أين العدالة حين تصبح الضحية هي المتهمة؟ أين العدالة حينما تجبر الضحية أن تمارس دور القاتل؟ وكيف ستثبت براءتها الآن؟ هل تستسلم للأحزان؟ هل تبكي؟ هل تصرخ؟ ما الفائدة؟ من سيصدقها؟ من سيقف معها؟ من يمسح دمعتها؟ من...؟ نعم.. من مستعد الآن كي يستمع لها؟ وهل هي أصلاً مستعدة للبوح بكل أسرارها؟ إنها تفضل الموت على أن تشرح قصتها لأحد.

لا.. لن يهمها إن صدقها أحد. كل ما يهمها الآن أن تقنع سامح أنها لم تخنه ولا تفكر بغيره، لكن كيف وبأي أسلوب؟ هل هو على استعداد للاستماع لمرافعتها؟ يقينًا إنه الآن يفكر كيف ينتقم منها. إنها الآن في مرمى سهامه.

كان يد زياد على قلبه خشية أن يفصله أخو سامح من عمله.

رجل رائع بلا شكّ، لكن لم يكن زياد يعرف أين سينتهي به الأمر. غضب من رانيا وقال لها:

- أرأيت أين أوصلتنا يا رانيا؟ إلى متى سيظل فادي سيفًا مسلطًا علينا.

ود زياد لو يذهب ويضرب فادي ويقول له: "اترك أختي بحالها". لكنه لا يستطع ذلك. ففادي من عائلة كبيرة، وله أصحاب كثيرون سيقفون معه، وأبوه من رجال الأعمال الكبار.

(هل أرتكب جريمة وأقتلها. ولكن إذا قتلتها سأنهي حياتي بيدي. لا بد من حل المشكلة بالتفاهم).

اتصل زياد بخاله، الصحافي العامل في جريدة السفير اللبنانية، وطلب منه اللقاء. وعندما التقى به شرح له المشكلة، وطالبه أن يساهم معه في إقناع رانيا بالتخلي عن فادي، وإصلاح الموقف مع سامح. لكنه فوجئ أن خاله عاصم قال له:

- لماذا تتزوج سامح إن كانت لا تريد الزواج؟ علينا احترام رأيها حتى لو لم تتزوج طوال عمرها.

لكن أخته اعترضت على كلامه قائلة:

- يا عاصم.. البنت الآن بلا عمل، وبعد هذه الفضائح سيصعب أن تجد عملاً تصرف علينا والحياة صعبة. رانيا تريدنا أن نشحذ بسبب فادي الذي لم نستفد منه شيئًا.

قالت رانيا بهدوء:

- يا خالي.. والله ما في بيني وبينه شيء سوى صداقة.

فقال خالها:

- صداقة؟ تتصلين به وأنت مخطوبة. ما هذه الفضائح؟!

اقترح زياد أن يحاول إصلاح الموقف. قال لهم:

- أنا مستعد للاتصال بفادي وتوضيح الموقف له.

استدار لرانيا وقال لها:

- ماذا لو ذهب إلى فادي يسأله؟

- ما عندي مانع.

اتصل زياد بي من هاتفه، رد عليه سامح بجفاء:

- نعم؟

- وعليكم السلام ورحمه الله وبركاته. السلام لله يا سامح، ولو! هل نسيت العيش والملح.

– حقك علينا يا زياد. السلام عليكم. لا تؤاخذني. أنت تعرف السبب.

قال لي زياد:

– سامح.. أريد أن أراك وأشرب فنجان شاي معك، وبعد ذلك أنا تحت أمرك في ما تريد. أنا الجمل وأنت السكين.

– أستغفر الله. لكني تعبان الليلة يا زياد.

– ما رأيك صباح الغد؟

قلت له:

– حسنًا سأراك غدًا مساء. لدي بعض الأمور لإنجازها.

اتفق زياد مع أمه وخاله ورانيا أن يلتقوا في بيتهم في اليوم التالي.

كانت مفاجأة فادي كبيرة لما حصل. قال لها:

– وكيف تسمحين لصديقاتك أن يشهرن بنا؟ أنت السبب يا رانيا. كل دقيقة تتصلين بي حتى وأنت مخطوبة. متى ستصحين من أحلامك؟

– فادي.. أنا لا أريد الزواج؟

– ألم تقولي إنه شاب جيد، طيب، محترم؟ لم تتركي صفة حميدة إلا وألصقتها به، فلماذا لا تريدينه؟

صمت لحظة ثم قال لها:

– هل تخشين أن يعرف السر؟

- لا.. ليس هذا ما يقلقني.

- إذًا ماذا يقلقك؟

- لا أريد الزواج.

- يا رانيا.. لقد وافقت على الخطبة، فافسحي المجال كي تحل عقدتك. لا تتصلبي في موقفك. ما حصل ليس نهاية المطاف. أعرف أنه مؤلم، وأعلم أنك بريئة، ولكن إن بقيت كذلك ستصبحين عانسًا.

- لا يهمني.

- وماذا لو مت أنا؟ من سيقف معك؟

- الله لا ينسى عباده.

- لا إله إلا الله.

فادي يعرف سرها. ربما الوحيد الذي يقف معها. حتى أمه التي تعرف المشكلة أحيانًا تصرخ به وتطالبه تركها.

- لقد مللنا من رانيا ومشاكلها. الناس تحكي بحقنا يا فادي. لماذا لا تتزوجها؟ لماذا لا تتزوجها؟

لكن أباه كان يقول له:

- إن تزوجتها سأطردك من البيت، فنحن نريد أن تكون زوجتك من عائلة محترمه.

كان أبوه دائمًا يطالبه بالتخلي عنها، ولكنه عندما كان يجبره على عدم استقبالها يفاجأ به يترك الشركة ويهرب من البيت، ويغضب ويثير حزن أمه.

كان أبوه دائم الحيرة.

(ما الذي يريده منها؟ يدعي أنه لا يريد الزواج منها، فلماذا يدور خلفها؟! لا بد أن ابني خالص، مجنون، سبحانك يا ربي على ما أعطيت، ليتك مثل أخيك محمد أو أخيك علي. هذا الولد منذ صغره أتعبني).

فادي نفسه لا يعرف لماذا ظل مرتبطًا بها. أكد لها ألف مره أنه لا يريد الزواج منها، لا يحبها كامرأة وإنما يحترمها كصديقة، كأخت. منذ عرفها صغيرًا حينما كانت في الكلية، كان الوحيد الذي وثقت به، فهو الذي أنقذها من زملاء السوء، وحماها من غدرهم، وحينما كان يضطر إلى استخدام القوة في الدفاع عنها لم يقصّر، لكنها على الرغم من عنفه معها لم تتخل عنه.

كانت ترتاح له. كانت سعيدة أنه لا يريد الزواج منها. كانت ثقتها به إلى أبعد الحدود، وعندما اطمأنت إليه أفشت له بسرها؛ ذلك السر الذي بكى عندما سمعه وصمم منذ تلك الفترة ألا يَتَخلَّى عنها، فأثارت علاقته بها الشبهات دون أن يدري.

حاول أن يخلصها من عقدتها، لكنها لم تتقدم خطوه واحدة إلى الأمام.

جلس فادي يفكر.

(ما الذي يمكن أن يقوله سامح الآن عني؟

سيعدني شابًّا يدور خلف البنات. لا بد أنه يعتقد الآن أنني على علاقة غرامية بها. عنده حق، لو كنت مكانه لفكرت بالطريقة نفسها.

ليت أنه يعرف أنني على علاقه بشابة أحبها، وأنني على وشك الزواج منها. لا بد من مساعدة رانيا.

لماذا لا ألتقي بسامح؟ لماذا لا أشرح له الموقف؟

الموقف؟ هل سنخبره بالحقيقة؟ لا.. لا.. يجب ألا يعرف شيئًا عن ماضيها. يجب إصلاح الموقف بينهما. علي مساعدتها للتخلص من مشكلتها، ومن عقدتها النفسية. إن لم تتقدم باتجاه الحل فلن تجني سوى الخيبة في الحياة).

(٨)

التقيت بزياد مساء ذلك اليوم. كنت جافًّا معه، عابس الوجه، لا أريد أن أرى أحدًا من تلك العائلة.

بدأ زياد الحديث:

– سامح.. أعرف أن ما جرى مثير ولا يقبل به أي عاقل، لكن صدقني أن رانيا ليس لها أية علاقة بين رجل وامرأة. فادي صديق قديم منذ أيام

الطفولة. لو كان على علاقة بها لتقدم وخطبها. لا يوجد ما يمنعه من ذلك.

قلت له:

– يا زياد.. ما معنى أن تتصل به كل يوم؟ ما معنى أن تتصل به حتى يوم حفل خطوبتنا؟ من يدريك ربما تحبه وأنت لا تدري؟ ربما هي تريده وهو لا يريدها؟

– سامح.. لا تذهب بعيدًا في تفكيرك. لو كنت أشك بذلك لم آت إليك. أنا لم أحضر كي أعيد العلاقة بينك وبين رانيا، ولكن أريد أن أوضح لك أن رانيا لم تكن تخدعك، وأنها تحبك، وتقدر عواطفك.

صمت ثم قال:

– أنا أعرف أنك تحبها أو كنت تحبها، وأنك صدمت مما حصل، لذلك يجب توضيح الأمور. لا بد من جلسة عتاب وتفاهم. لماذا لا تأتي معي إلى البيت لنتفاهم مع أمي ورانيا وخالي هناك. إن قررت بعدها تركها فعلى الأقل نكون قد كسبنا صداقتك. يا رجل، أين البسمة التي عودتنا عليها؟ لا تعقد حواجبك هكذا. تأكد أن ما حملته في قلبك من حب لرانيا لن يموت أبدًا.

قلت لنفسي ساخرًا: لن يموت أبدأ؟؟ عدت أضحك، لكن...

تململت قليلا، وقد هدأت أعصابي. فكرت بالموضوع، وأعلنت موافقتي على حضور جلسة عائلية مع رانيا.

توجهت بسيارتي إلى بيتهم، وهناك استقبلنا الجميع.

جلست بعد أن سلمت عليهم. بدأ خالها الحديث قائلاً:

– فرصة سعيدة أننا تعرفنا إليك يا سامح. كنت أنتظر حفلة عقد القران لأتعرف أكثر إليك، لكن الظروف لم تسمح. نحن هنا يا بني للتفاهم حول ما حصل. يهمنا أكثر مما يهمك أن تكون العلاقة سليمة بين رانيا وخطيبها ولا نسمح لأي شيء أن يعكرها. لقد دققنا معها، وتأكدنا أن علاقتها مع فادي علاقة زمالة قديمة، وليس لها معه أية علاقة أخرى. أنت محق فيما ذهبت إليه وقد أخطأت حينما لم تقل لك عن ذلك، وعندما استمرت في اتصالها به. وهي لا تزال على رأيها وموقفها فيك، وتعتذر أنها رمت لك دبلة الخطوبة. قبل أن أترك لك المجال للحديث، أكرر اعتذارنا لما حصل، وإن كنت ما زلت على موقفك بإنهاء الخطوبة فنحن جاهزون. المهم أن تخرج راضيًا، وإن كان في قلبك بقايا حب فلا تقضي عليه.

يا لهذا الخال! يثير فيّ عواطف الماضي. يضرب على الوتر الحساس. كنت أنظر إليها. كانت حزينة، عابسة الوجه. قالت قبل أن أرد عليه:

– سامح.. صدقني كما قلت لك من قبل ليس لي علاقة غير سليمة به. أعترف لك إنني في الماضي أحببته، لكن علاقتنا تطورت باتجاه زمالة لا غير. لا يوجد ما يمنعه من الزواج. لكنه يحب فتاة سيتزوجها قريبًا ولا أراه إلا نادرًا. يمكنك أن تسأله متى أردت.

لم أعرف ماذا أريد. كنت محتارا. هل أصدقها، أم أعد ما يجري مؤامرة

محكمة ضدي؟ أعترف أنني أحببتها، وأنني ما زلت كذلك.

قلت لها بصراحة:

- رانيا.. هل فعلا تريدين الزواج مني أم أنك على رأيك القديم لا تفكرين به؟

هزت رأسها وقالت:

- نعم موافقة.

- وهل ما زلت على شرط أن تكون الخطبة لمدة سنة.

- لا.

تعجبت لموقفها الجديد وصرت أتساءل: غريب، ما هذا التغير في الموقف؟ ما الذي غيرها بهذه السرعة؟ أراها اليوم كأنها تتودد إلي وكانت قبل أيام تتصرف غير ذلك.

قالت لي:

- سامح.. أهم من الزواج، أما زلتَ تحبني؟

ابتسمت لسؤالها. لأول مرة أشعر أنها مهتمة بحبي لها. ربما لأنها شعرت أنه تخلخل، أو انهار، وربما لأنها عرفت أن ما فعلته أثر عليه.

قلت لها:

- رانيا.. ما زال مكانك في القلب كما هو. أرجو أن تكون علاقتك مع

فادي قد انتهت.

هزت رأسها وقالت:

- بكل تأكيد.

تدخلت الأم وقالت:

- أتمنى لكما التوفيق، ولو أنني عاتبة عليك يا بني، فقد كان يجب أن نجلس هكذا ونتفاهم بدل ما حصل، لكني لا أستطيع أن أزعل من ابني.

قال لها زياد:

- يا أمي كفى عتابًا.

- رانيا.. قفي سلمي على خطيبك.

وقفت رانيا. تقدمت نحوي. وقفت. سلمت عليها وتعانقنا.

قالت لي:

- سامحني. أنا لم أقصد الإساءة إليك.

نظرت إليها، وقلت بهدوء:

- سامحتك.

قبلتها من خديها.

ابتسم خالها وقال لأم زياد:

- أين المشروب يا أم زياد والحلويات؟ ولو هذه فرصة لا تعوض.

شعرت بالراحة الممزوجة بالخوف. هل صحيح ما أقدمت عليه؟

بعد حديث طويل مليء بالعتاب، اتفقت معها أن نذهب يوم غد للسهر في بيروت لعل سهرتنا تعيد الأمور إلى نصابها، فما زال في حلق كل منا شوكة علينا استخراجها ليستطيع حبنا التنفس بشكل طبيعي، ولنحُول بينه وبين الاختناق. ما أقسى أن يخنق الحب أصحابه!

خرجت من بيتهم وأنا راض، كأنني كنت أبحث عن سبب لعودتي. هدأت من غضبي، وشعرت كأنني بدأت أعود إلى طبيعتي السابقة. بدأ قلبي يستعيد حيويته كأنه كان في غرفة التبريد وتجمد من شدة البرودة، وها هو بفضل حرارة الحب بعد أن خرج من غرفة التجمد يستعيد وضعه تدريجيًّا. جيد أنه كان مجمدًا، فقد أمكن إعادة النبض إليه من جديد. آهٍ لو كان في غرفة الغليان، لاحترق ولما أمكن استعادة وضعه السابق.

رانيا تعود لتسري في دمي، في عروقي. كل نبضة قلب كأنها احتوتني حتى وهي في قمة انفعالها.

ما الذي أعطاها كل هذه القدرة على التحكم بي؟ لماذا أصدق كل ما قالته؟ ألأنني لم أعد أرى سواها؟

لقد أحكمت قبضتها علي، بل أحكمت حبي لها. ولا أحد يستطيع فك خيوطه. كأنها خيوط عنكبوت لا أعرف كيف تمتد وإلى أين تسير.

أعترف أنها رائعة، وأعترف أنني أحبها، ولولا ذلك لما عدت إليها، لكني

ما زلت محتارًا لا أعرف لماذا كانت لا تريد الزواج، ولماذا وافقت الآن؟

ماذا لو لم تكن عذراء وكان هذا سر خوفها؟ أأطلقها؟ أم أصفح عنها؟ أم أنتقم منها؟ هل في الحب انتقام؟ إن لم يكن كذلك فعلى الأقل لا يكون خداعًا. ليست رانيا التي تخادع. تصرفاتها، حركاتها، لا تدل على ذلك. كيف؟ كيف لي أن أعرف؟

سأترك للأيام كي تقدم تفسيرًا لكل تساؤلاتي. الأيام هي التي تداوي الجروح. والآن علي إعادة الأمور لما كانت عليه.

كان أخي وليد غاضبًا لقراري. قال لي:

– يا سامح.. بعد كل ما فعلته وفعلناه تعود إليها؟ يا رجل أين الشهامة. هذه لا تستحق حذاء قدميك.

أما صديقي أسعد فقد جن جنونه وقال لي:

– مجنون. والله مجنون. تريد الزواج منها بعد كل ما سمعت؟! هذا كثير.

أما أبي فقد أقسم اليمين إن عدت إليها ألا يحضر حفل زفافنا.

أمي حاولت أن تثنيني عن رأيي، وعندما أصررت على موقفي تمنت لي السعادة.

أما أختي ليلى فقالت:

– أخي فقد عقله كما فقده قيس بن الملوح.

أخي كامل تفهم موقفي وقال لي:

- أنت مسؤول عما تفعل، فإن كان رأيك هكذا فلا تتردد، لكن تذكر إن حصلت تطورات لن تلوم سوى نفسك.

لكن زاهي غضب لقراري، وقال:

- "اصطفل".

فوجئ العاملون في الشركة بما سمعوه. يبدو أن رانيا اتصلت بسمر لتخبرها أنها عادت إلي، أو أنني عدت إليها، وعلى الرغم من حقدها على زميلاتها كلهن، إلا أنها كانت حريصة على إخبارهن أنها عادت خطيبة لي وسوف تتزوج قريبًا. أرادت إغاظتهن. كأنها تريد أن تقول لهن: لقد فشلت كل محاولاتكن للتفريق بيننا.

صديقاتها تعجبن لموقفي. بعد كل ما قلنه لي: عدت إليها. تساءلن: أي غبي هذا؟

عقبت نسرين قائلة:

- عندها حق تضحك عليه ما دام قد سلم رقبته إليها. ألم ير سواها؟ ما الذي يجعله متمسكًا بها؟

فردت عليها ريما بتهكم:

- الحب أعمى.

فقالت نسرين:

– عمى بقلبه. كم هو غبي!

فأكلمت سمر:

– آه.. والله غبي. بعد أن علم أنها على علاقة مع فادي عاد إليها.

ضحكت نسرين ثم تابعت:

– غدًا بعد أن يتزوجها، يخرج في الصباح، فيدخل فادي.

ضحك الجميع.

قالت ريما:

– يا سمر.. لا تزيديها عليها. يمكن تابت.

فقالت نسرين:

– سبحان الله! يطعم اللوز لمن لا أسنان له.

– ليته يبعث لي بعريس مثله.

قالت ريما:

– لا أدري لماذا لم ينتبه لك يا نسرين؟ لو قصرت شعرك مثلها وصبغته بالأحمر أو الأخضر ربما انتبه لك.

– لماذا أصبغه؟ أصلاً شعري أحلى منها ألف مرة. شعري ناعم وطويل. ليس مثلها. شعرها مثل الرجال.

فقالت سمر:

- لا تزعلي يا نسرين.. سيأتيك عريس أحلى منه. لقد جاءك عريس لقطة، لكنك لم تقبلي لأنه فلسطيني. يعني الفلسطيني صار غير مناسب؟!

- لا يا سمر.. ليس قصدي أبدًا. بالعكس، يمكن الفلسطيني أحسن في معاملته للمرأة اللبنانية. لكن يا سمر.. أنت تعرفين كيف تضيق الحكومة اللبنانية على الفلسطينيين هنا، فلو فصل من العمل قد يضطر إلى الهجرة، وأولادنا ستعدهم الحكومة اللبنانية فلسطينيين لن تمنحهم جوازات سفر لبنانية، وسأتعب معهم هنا، حكومتنا السبب.

فقالت لها سمر:

- والله عندك حق.

الأمريكي يأتي إلى لبنان ومن حقه شراء أي بيت أو شقة يسكن فيها، أما الفلسطيني فممنوع. يا أختي.. اعتبروه أمريكيًّا، أو سويديًّا. إذا عاد إلى فلسطين ستظل الشقة في لبنان، لن يأخذها معه.

قالت ريما:

- إيه.. الدنيا عجائب.

فعلقت نسرين قائلة:

- ليس أعجب من قصة رانيا وقيس.. قصدي سامح. معقول قيس ليلى كان مثل سامح.

فقالت سمر:

- قصدك معقول ليلى كانت مثل رانيا؟ فشر!

- ليلى كانت تحب قيس، لكن هذه تحب فادي. الذي لا أفهمه أبدًا، لماذا تقيم علاقة مع فادي وتريد أن تتزوج سامح؟

- بسيطة، لأن فادي يريدها عشيقة بالسر.

(٩)

أنا اليوم أسبح ضد التيار. معظم الأهل والأصدقاء الذين علموا بالقصة لاموني لعودتي إلى لرانيا. أصبحت في نظرهم الغبي الأكبر. كلهم استغربوا تصرفي. ربما تسرعت في إعلام بعض الأهل والأصدقاء بما حصل عندما قطعت علاقتي معها. ولكن كيف يمكن أن أكتم السر والخبر يتناقل على ألسنة سمر وريما ونسرين؟ كيف أخفيه عن الأهل ووالدي عرف به قبلي؟ أم ترى تسرعت في عودتي إليها؟ لا أستطيع الجزم بما هو الأصح. كل ما يمكن قوله إنني فعلت ما أمرني به قلبي، ثم لماذا نحن دائمًا نظلم النساء؟ ألا يمكن أن تكون بريئة؟ ألم أعرف فتيات قبلها؟ مثل شادية من طرابلس، وجولييت من جونية؟ ألم تكن إلهام زميلتي في المدرسة؟ لم أفكر بالزواج منها. كنا صديقين كأي طالبين يلتقيان في المدرسة ويراجعان دروسهما. أعترف إنني كنت أحيانًا أنظر إليها بشهوة الرجال، وأتمنى لو أنها لي، لكنني كنت أتراجع عندما أعرف أنني لن أتزوجها، ولا أريد أن أقيم علاقة مع صديقة، ثم أتركها تصارع النتائج وحدها، ألم تكن لي مغامرات شبابية مع غيرهن؟!

آه على أيام المغامرات. كنت مع أحمد وجورج دائمًا نطاردهن خلال المدرسة.

اليوم أصبحت عاقلاً، رجلاً عاشقًا يدقق في كل صغيرة وكبيرة. ماذا لو كان أحدهم يطاردها أيام المدرسة؟ هل أعاقبها على ذلك؟ أليس في قلب

العشاق بعض الصفح والغفران؟ لماذا نحن الرجال نعطي لأنفسنا الحق في الصفح والغفران ونحرم نساءنا منه؟ كأننا الملائكة وهن وحدهن الشياطين.

اتخذت قراري ولم يعد من الممكن التردد فيه؟ اليوم موعدي معها. قررت أن أسهر معها في بيروت. في "بيتي كافيه" على البحر المتوسط. لبست أجمل ما عندي وتعطرت بعطر "إتيرنتي"، وتوجهت بسيارتي لأصطحبها.

كانت تلبس ملابس عادية لا علاقة لها بالسهرة. كأنها ما زالت زعلانة، أو غير متشوقة للسهر.

قالت لي:

– أول مرة أسهر في "بيتي كافيه"، فأنا لم أدخله من قبل.

قلت لها:

– ستسهرين سهرة جميلة. ستنسين خلاف الأسبوع الماضي.

نظرت لي وقالت:

– أراك اليوم كأنك عريس؟

– عريس مع عروسته. رانيا.. أنت اليوم بابتسامتك أجمل من كل يوم.

ابتسمت وقالت:

– لم يتغير بي شيء منذ الأمس.

– بل تغير. ابتسامتك زادت اتساعًا. وجهك زاد بشاشة، لا أدري لماذا

أحبك كل يوم أكثر.

جلسنا في "بيتي كافيه" في الطابق العلوي، وحرصت على أن تكون طاولتنا في المقدمة على الشاطئ مباشرة.

كان نسيم البحر، ومنظر الأمواج وهي تضرب الشاطئ جميلاً.

طلبت لها تشكيلة من المأكولات اللبنانية المشهورة، فصاحت:

– سامح.. ما هذا الأكل. نحن اثنان فقط لا عشرة؟

– أريدك أن تأكلي.

قاطعتني وألغت الكثير من المطلوب، وبعد أن ذهب النادل قالت لي:

– يكفيني وجودك سيشبعني.

الآن بدأت تدغدغ مشاعري. ما الذي يريده الرجل من حبيبته سوى أن تبادله كلمات الحب.

قلت لها:

– ما دام وجودي يشبعك سأبقى معك على طول كي لا تجوعي.

سكت لحظة ثم قلت لها:

– حبيبتي.. انظري إلى البحر كم هو جميل! على تلك الشواطئ أقيمت في الماضي حضارة لا يزال يكتب عنها في التاريخ. ها نحن اليوم نجلس قي قلب التاريخ نكتب قصة حب جديدة.

- أشاعرًا أصبحت؟

- عيناك مصدر إلهام سامح، وسر فصاحة لسانه.

ابتسمت وقالت:

- يا ليت أني عرفتك منذ زمان.

وضعت يدي على يدها. حاولت أن تسحبها، لكنني منعتها.

- رانيا.. لا تسحبي يديك مني.

رفعتها وقبّلتها. كانت تنظر حولها كأنني ارتكبت إثمًا أمام الجميع.

جاء الأكل، وكان شهيًّا، فتعمدت أن أطيل وقته حتى أظل أطعمها بيدي. كانت في تلك الليلة على غير عادتها أكثر تجاوبًا من السابق، ربما لأن علاقتنا تطورت أكثر، وربما لأن ما حصل جعلها تعيد حساباتها.

بعد انتهاء العشاء بفترة كانت الساعة حوالي العاشرة مساء. نزلنا إلى الطابق الأسفل حيث سهرة الطرب بقيادة الفنان حسان هاشم، الذي أتحفنا بعدد من الأغاني الشبابية. كانت رانيا مسرورة وتتمايل مع الموسيقى. سحبتها ورقصنا معًا فأبدعت. لأول مرة أشعر أنها ترقص معي بقلبها لا بجسمها. شعرت بالراحة، وعندما جلسنا بعد أن أعيانا الرقص، قلت لها:

- كأنك تحية كاريوكا، ولكن لبنانية وليس مصرية.

أين تلك البهجة من زمان.

طلبت كأسًا من الجن. سألتني:

- لماذا الجن؟

- أسكر على أنغام سعادتك.

- ألا تكفي عيناي لتسكر بها؟

- بلى وربي.

- إذًا غيّر المشروب.

نزلت عند طلبها واستبدلته ببرتقال لنا. كيف أنكر أن عيونها تسكرني؟

استراح حسان هاشم قليلاً، ثم بدأ يسير بين الضيوف يرحب بهم. اقترب منا ورحب بنا، ثم سأل رانيا:

- ماذا تحبين أن تسمعي؟

فقالت له بعد تفكير:

- أغنية محمد فؤاد "القلب الطيب".

سألها:

- ستهديها لأحد؟

- طبعًا، للقلب الطيب الوحيد، سامح خطيبي.

ابتسم ثم نظر إلي وقال:

- حظك يا سامح، يا أبو قلب طيب.

- وهل سترد عليّ بأغنية؟

- أكيد، يا ليتك تغني لأم كلثوم "هل رأى الحب سكارى مثلنا...".

- تكرم عنيكو.

- عاد إلى المسرح، ورحب بنا، ودعانا إلى الحلبة، ودعا الجميع مشاركتنا فرحتنا، ثم بدأت الموسيقى تعزف.

"القلب الطيب

... ..."

لم أكن قد دققت في كلمات تلك الأغنية من قبل، لكن في تلك الليلة كنت مشدودًا إليها. كانت تنظر لي وهي في قمة انفعالها، وعندما كان يقول: "ولا عمره بيقسى... دايما مليان مليان بالخير"، كانت تشير إلي كأنها تريد أن تكفر عن سيئاتها.

أين كل تلك البهجة؟

يا إلهي.. هل هذه رانيا التي أعرفها؟ لو شربنا خمرًا لقلت من الخمر، لكنها لا تشربه، ومنعتني من شربه. هل سكرت من عيونها؟ أم أنها سكرت هي من قلبي الطيب؟

من رآها وهي ترقص على أنغام كلمات "هل رأى الحب سكارى" يقول إنها ليست رانيا التي أعرفها من قبل. لقد أبدعت. لقد بانت أنوثتها ورقتها.

كانت تتمايل ويميل قلبي معها بخفة لا تتوفر إلا لدى راقصات محترفات، لعلها قررت أن تتقدم خطوة باتجاهي.

هذه الفاتنة لن أفرط بها. لن أسمح لأحد أن يأخذها مني. ليغضب الجميع، فالقلب وما يعشق.

تلك هي حبيبتي رانيا. إنها كل ثورتي، ورأس مالي.

سأقاتل الدنيا لأجلها. لن أسمح لأحد أن يسيء إليها.

لتخرس ألسنة سمر، وريما، ونسرين. كأنهن يغرن منها. آه من غيرة النساء، وطمع النساء، وعيون النساء!

تعبنا من الرقص، انسحبنا لنستريح.

قلت لها:

- أنت نجمة الحفل الليلة.

فقالت لي:

- جمال الحفل بوجودك فيه.

صمتت ثم قالت معلقة:

- رائع حسان هاشم. ربما نعود يومًا ما لنسهر معًا هنا.

- في أي وقت تشائين. الأسبوع القادم، ما رأيك؟

هزت رأسها موافقة.

عدنا بعد منتصف الليل وقد تعبنا من الرقص، لكني شعرت لأول مرة بقمة السعادة.

عندما جلسنا داخل السيارة، اقتربت منها وطبعت على خديها قبلات سريعة، لم أعرف عددها. كأنني أريد أن أعوض تلك الأيام التي مرت دون أن أقطف ورودي التي تعودت عليها.

خلال الطريق كنا نتحدث عن السهرة، وحسان هاشم والقلب الطيب، سألتها:

- هل فعلاً تشعرين بطيبة قلبي؟

- أنت صاحب أطيب قلب عرفته؟

تساءلت وأنا أستمع لحديثها. أهذا ما يعجبها بي فقط؛ قلبي الطيب؟ ألا تعجبها وسامتي، وعينيّ، وشهامتي، وحبي لها؟

قلت لها:

- أهذا أكثر ما يثير المرأة في الرجل؛ قلبه الطيب؟

- بالنسبة إلي هذا أروع ما يأسرني. ألم أقل لك من قبل: إنني صنف جديد من النساء لم تسمع به من قبل؟ كل شيء يتغير ويتبدل إلا القلب الطيب، لا يتغير ولا يتبدل. ألم تسمعه عندما كان يغني:

"لا بيعرف يقسى...

دايما مليان، مليان بالخير"

- وبالحب أيضًا.

- الحب نوع من الخير، بل قمة الخير.

- أفهم من كلامك أنك لست غاضبة علي الآن؟

- كيف أغضب، وأنا الذي أغضبتك؟

- أأنت راضية عني؟

- كل الرضا.

وصلنا قرب بيت أهلها، ودعتها وقلت لها:

- هل تسمحين بقبلة للقلب الطيب.

قدمت لي خدها. وضعت يدي على رأسها. قبّلت خدها وتقدمت أقبل شفتيها، وما أن أحسست بفمي على شفتيها حتى جفلت ورجعت إلى الوراء. صرخت:

- سامح؟

- ماذا جرى يا حبيبتي؟

- تصبح على خير.

ثم فتحت الباب وخرجت من السيارة.

- رانيا.. رانيا.

ناديتها وخرجت من السيارة، كان الوقت قريبًا من الساعة الثالثة صباحًا. قلت لها:

- ما الذي حصل؟

اقتربت مني وقالت:

- لا أدري. أشعر بضيق عندما تقبّلني من الشفاه. آسفة. لم أقصد أن أحول سعادتك إلى حزن. لكن صبرك علي، سأتعود مع الأيام.

- في المرة القادمة؟

- في المرة القادمة.

- حسنًا إلى اللقاء.

(١٠)

مرت الأيام بسلام. كانت علاقتي مع رانيا تتطور، لكنها مع العائلة تتدهور. اتصلت بي سمر وزوجها وسألاني عن خبر عودتي، فقلت لهم:

– نعم عدت لها. كل المعلومات التي نقلتموها لي ليست سوى زمالة عادية مع صديق قديم.

قالت لي سمر:

– ألف مبروك. نحن نتمنى لك التوفيق.

صرت متأكدًا أن كل صديقاتها يحرضن عليها إما لأنهن يغرن منها أو لأنهن لا يعرفن ما يدور مع رانيا. من حقهن أن يشتبهن بتصرفاتها؛ فمن غير المعقول أن تتصل رانيا في حفلة خطوبتها مع صديق لها بالحمام. كيف يمكن استيعاب ذلك التصرف.

كانت رانيا بلا عمل، ولذلك كانت تسحب مني فلوسًا أكثر من اللازم حتى أنني سألتها مرة:

– أين تذهبين بالفلوس؟

احمرّ وجهها وقالت:

– سأسدك إياها عندما أجد عملاً.

– يا حبيبتي لا أقصد ذلك. صدقيني. لكنك تعرفين أكثر مني أننا نريد أن نوفر الفلوس لتجهيز شقتنا.

اتفقنا أن نستأجر شقة مناسبة، بدأنا البحث حتى وجدنا شقة مناسبة في شارع رياض الصلح وكدنا نستأجرها، لكنها طلبت مني الانتظار، فقد نجد أفضل منها.

خلال العودة إلى البيت، قلت لها:

– سأعيد لك المجوهرات غدًا، وسأشتري لك بدل القطع الناقصة.

لم تدم فرحتنا طويلاً، فبعد أيام اتصلت بي تبكي.

قالت لي:

– أريد أن أراك اليوم.

سألتها عن السبب فلم تجب. قالت:

– ستعرف عندما أراك.

– أين تحبين اللقاء؟ على الكورنيش؟

– لا هنا في بيتنا.

– لماذا في بيتكم الضيق؟

أصررت على أن نلتقي في استراحة صيدا.

ذهبت في سيارتي لأصطحبها من البيت. كانت تحمل كيسًا بلاستيكيًّا.

سألتها:

- ماذا يحتوي؟

قالت:

- بعض الملابس لها.

- ولماذا أحضرت الملابس معك؟

- أريد استبدالها من أحد المحلات.

- يبدو أنها لم تعجبك؟

أرادت تغيير الحديث فقالت:

- الجو جميل، والطقس معتدل اليوم.

- بوجودك كل شيء جميل.

- ليس دائمًا.

يبدو من نبرة حديثها أن لديها كلامًا ستقوله. اللهم استرنا.

أسرعت في الطريق إلى استراحة صيدا، وعندما وصلنا، اخترنا مكانًا منفردًا في زاوية بعيدة عن الناس. جلسنا بعد أن طلبنا كأسين من الليمون.

قالت لي:

- سامح.. ما سأقوله لك مهم جدًّا، أرجو أن تسمعني وتفهمني.

أرخيت أذني وأنا أعرف سلفًا أنها ستطلب الانفصال، فقد تعودت على ردود أفعالها، وبدأت أعرف كيف تفكر كأنني أصبحت خبيرًا في شؤونها.

أشرت إليها بيدي أن تبدأ حديثها بعد أن قدمت رأسي باتجاهها حتى أسمع ما تقول دون الحاجة لأن تعلي صوتها فيسمعه الجالسون قريبًا منا هنا وهناك.

– سامح.. أريد أن أعترف لك إنني لا أستطيع أن أستمر في خداعك، سامحني.

فاجأتني قلت لها:

– خداعي؟ كيف؟

– أنا لا أريد الزواج. أنت شاب رائع. أفضل شاب. لو أردت الزواج لاخترتك دون نقاش. لكنني لا أريد الزواج. لقد وافقت بضغط من أمي لأن أوضاعنا المالية صعبة، قالت لي: "اسحبي منه الفلوس حتى نسدد ديوننا ونشتري لوازمنا، وبعد فترة اتركيه إن أحببت". ترددت لأن ذلك ليس هدفي، لكنني بعدما انفصلت من عملي وحصل ما حصل، تراجعت وقبلت أن ألعب الدور. أنا لا علاقة لي مع فادي ولا مع أحد، لكني لا أستطيع أن أكون زوجه لأحد، لن أقوم بواجبي. لن تستفيد من الزواج مني. كل مليم صرفته علي سجله واعتبره دينًا علي سأسدده عندما أجد عملاً، وهذا هو الذهب أعيده لك مرة أخرى. لا تسألني عن القطع الناقصة. إنها أمي باعتها بدون أن تسألني، والفلوس التي كنت أسحبها منك كانت تأخذها. أنا أكره

نفسي. أكره البيت. أكره أمي وأخي. كلهم يريدونني أن أعطيهم ما معي. سامح سامحني، أنا لا أستطيع أن أكون زوجه لك. أنا بحاجة إلى صديق! إلى أخ! إلى أب يقف بجانبي.

قلت لها بسخرية:

– عدنا إلى الأسطوانة الماضية؟

– هذه ليست أسطوانة. هذه حقيقة.

– ولماذا تستسلمين لأمك؟

– إنها أمي وماذا أفعل؟ اسمع.. عندي صديقة اسمها فاطمة، ما رأيك أن أخطبها لك؟

ضحكت وقلت لها:

– تخطبيها لي؟ ماذا جرى لعقلك يا رانيا؟ كنا سعداء قبل أيام. أنسيت القلب الطيب وحسان هاشم؟

– لم أنس. كانت حفلة مصطنعة.

– كيف؟

– سامح.. أرجوك ارحمني. لا أريد الزواج، وهذا الكيس الذي أحمله فيه كل ما اشتريته لي مؤخرًا فأنا لا أستحقه.

سألتها وقد بدأ الغضب يسري في دمي:

- هل اتصلت بفادي؟

- نعم.. كل يوم أتصل به.

- تتصلين بفادي كل يوم؟

- هل تريد أن أكذب عليك؟

- ألم تتعهدي بعدم الاتصال به؟

- قلت لك: إنني لا أصلح زوجه لك.

نظرت إليها وسألتها:

- رانيا.. أصدقيني القول: هل كنت على علاقة قديمة مع أحد تخشين انكشافها؟

- قلت لك: ليس لي علاقة مع أحد. صدقني إنك أنبل رجل عرفته. ليس العيب فيك، ولكن فيّ أنا. أنا الإنسانة العاجزة التي لا تصلح لشيء. أنا التي يعشش الخلل فيها. أنا التي تراها وتعجب فيها بداخلها ظلام قاتل، بداخلها الخوف، بداخلها كل تناقضات العالم. سامح، لن تستطيع أن تغيرني. ارحم نفسك ووفر على نفسك العذاب.

حملت الكيس منها، وبعد أن دفعت الحساب غادرنا المحل، بدون أن أنبس بكلمة.

كنت طوال الطريق أفكر كيف سأنتقم من فادي الذي اعتبرته اليوم سبب كل المصائب. سأذهب لأضربه، لأطعنه، لأطلق النار عليه. ستقوم الحرب

الأهلية بعدها. سيقولون سنّي قتل شيعيًّا. أوصلتها البيت وعدت أدراجي أفكر كيف سأنتقم.

هل فادي السبب؟ أم هي السبب الذي لا يزال يحيرني مع فادي؟ ألم تقسم أن لا علاقة غرامية به، فلماذا تصر أن تتصل به؟

شعر والدي بحيرتي. كنت على غير عادتي، سألني:

- هل اختلفتما؟

قلت بتردد لا يبدو على صاحبه الجزم:

- لا.. لم نختلف.

ضحك:

- يا ولدي، لا تستهبلني؟ أنا والدك وأعرفك.

- أنا تعب اليوم، وسأحدثك غدًا بالموضوع.

تركت غرفة الجلوس، وذهبت إلى غرفتي لأكون وحدي.

قالت أمي له:

- دعه يا أبا كمال يستريح، فكل خطيب لا بد يتخاصم مع خطيبته.

كانت ليلة طويلة، لم أنم فيها سوى ساعة أو ساعتين.

كنت أستعرض فيها كل علاقتي معها، وإصرارها على عدم الزواج.

كانت رائعة في الحفلة قبل أيام. ما الذي غيرها؟ كانت تفيض دلالاً وأنوثة. كنت أتمنى لو كانت ليلة زفافنا. ليتها كانت ليلة زفافي.

انتظرت ذلك اليوم بفارغ الصبر. كل يوم أزداد شوقًا للحظة أضع فمي على فمها. النار في جسمي تزداد اشتعالاً، ولن يطفئها سواها. متى سأطبق عليها وأضمها إلى صدري؟ متى سأكون معها في فراش واحد؟

لماذا تتغير بعد اتصالها به؟ كأنه يلعب بأعصابي. هل يعتقد أن أحدًا سيحميه مني؟ مخطئ. غدًا سيعرف من يكون سامح. لن أتركه يقضي على حلم جميل، وحب نما في فؤادي. سيدفع ثمن جريمته معي.

(١١)

رحلتي العائلية إلى صيدا كانت رائعة جدًّا، لكني افتقدت فيها والديّ كثيرًا، غاب أبي، وغابت أمي. هاجرت البلد من تحت رأس رانيا، وعندما قررت زيارة الوطن الذي أعشق غاب عنها من ربياني. كنت أشكو لهما في الصغر ما يواجهني من مشاكل، وعندما كبرت لم يتركاني، بل كان كل بطريقته يحاول أن يداوي جرحي. رحمكما الله، وأسكنكما جناته.

كان أول شيء فعلته بعد وصولي هو زيارة قبرَي والدي ووالدتي، مع زوجتي والأولاد، وبصحبة جميع إخوتي وأخواتي. كان منظرًا رهيبًا. توحدنا حول قبريهما. ما أعظمهما من والدين! حتى في موتهما وحّدانا جميعًا.

بعد خروجنا من المقبرة حدثني أخي كامل كيف كانت جنازة أبي، ثم بعده بسنوات جنازة أمي، قال لي: إن فادي حضر مراسم التشييع، وحضر إلى بيت العزاء، أما هي فقد حضرت إلى بيت العزاء فقط.

فادي إذًا يقوم بواجبه على الرغم من غيابي. هكذا إذًا تحوّل إلى صديق حميم بعد أن كنت أفكر بأنه سبب مشاكلي. كنت أحقد عليه، بعدما حصل مع رانيا.

في اليوم التالي من تلك الحادثة قبل أكثر من عشر سنوات توجهت إلى معرض السيارات الذي يملكه أبو فادي باحثًا عنه فلم أجده هناك، فاتصلت

به هاتفيًّا من مكتبه.

– ألو.. فادي؟

– نعم.. فادي. من المتكلم؟

– أنا سامح.

عندما سمع اسمي قال متفاجئًا:

– أنت خطيب رانيا؟

– نعم أنا. أريد أن أقابلك. أين أنت؟

– أهلاً وسهلاً. زيارتك تشرفنا. سأنتظرك في البيت.

– لماذا البيت؟

فقاطعني:

– ولو يا سامح، هذه أول زيارة لك. يجب أن نحظى بالتشريف في بيتي في...

قاطعته:

– أعرف البيت. أنا قادم إليك.

كان فادي يعرف في قرارة نفسه لماذا أنا قادم كأنه يعيش في عقلي. كان ينتظر لقائي به أكثر من انتظاري للقائه، فقد كانت رانيا تخبره بكل شيء.

كنت في قمة الغضب، لكن استقباله لي وضعني في دوامة أخرى، لا أعرف ما الذي يحصل حولي؟

قال لي باسمًا عندما رآني:

- أهلاً سامح. تشرفنا.

تعانقنا كأننا نعرف بعضًا منذ زمن طويل مع أنني لم أعرفه من قبل.

توجهت خلفه إلى الطابق الثاني من عمارة والده.

قال لي بعد أن دخلنا غرفة الجلوس:

- البيت نور بوجودك يا سامح. البيت بيتك. اجلس أينما شئت، وسأعود لك بعد دقيقة.

- عاد إلي بعد دقائق مع امرأة كبيرة بالسن قال لي إنها أمه. كان يحمل في يده كتابًا كبيرًا، وضعه أمامي، وجلس بجانبي، قال لي:

- هل تعرف ما هذا؟

نظرت إلى الكتاب وقلت له:

- طبعًا هذا القرآن الكريم.

وضع يده عليه وقال:

- أقسم بالله العظيم وبهذا القرآن الكريم، أنني أنا فادي عبد الله لا علاقة لي برانيا سوى علاقة الأخوة. لم أنم معها، ولم أضاجعها، ولم أقبلها، ولم

أعانقها. اللهم فاشهد، وهذه أمي تشهد على ما أقول لأنها تعرف قصة رانيا.

فوجئت بكلامه، هل أصدقه؟

– كيف عرفت أنني قادم لذلك؟

– أعرف كل شيء؟ كل تفاصيل ما حدث. والآن سأقول لك قصة رانيا، فإما أن تعذرها، أو تسامحها.

استدار إلى أمه وقال لها:

– أمي.. حضري لنا مشروبا باردًا، وبلغي الخادمة أن تهيئ لنا طعام الغذاء.

– طعام الغذاء؟ لا لم آت لذلك. لا تتعبوا أنفسكم.

– من يدخل بيتنا يجب أن يأكل من زادنا.

ضحكت وقلت له:

– إن كان واجبًا فسوف أقوم بالواجب.

هدأت قليلاً، وبعدما سمعت ما قاله. هل يمكن أن يقسم بالقرآن كذبًا؟ ما الذي يجبره على ذلك؟ لماذا يستقبلني في بيته؟ سأستمع إلى ما سيقوله الآن.

قالي لي:

– سامح.. استمع جيدًا إلى ما سأقول. لا أحد يعرف قصة رانيا سوانا؛ أنا وأمي وأبي وأنت الآن.

في العام ١٩٨٥، وأثناء اشتعال الحرب الأهلية، كان أهل رانيا يعيشون في بيروت، وأثناء عودتهم من زيارة أحد أقاربهم قريبًا من خط التماس وقع أبوها ورانيا بأيدي القوات اللبنانية، وقد شاهدت بأم عينها قتل والدها، وكادوا يقتلونها، لكن أحد المجرمين من القوات طلب أن يأخذها لتخدم أمه العجوز في البيت. كان عمرها عشر سنوات. أخذها وأمرها أن تساعد أمه بالكنس والطبخ، وغسيل الصحون. وعندما كان يعود إلى البيت كان يذهب إلى حيث تنام، ويغتصبها جنسيًّا. كان يغلق فمها كي لا تصرخ، ويحذرها إن سمع صوتها أحد بالقتل حيث كان السكين على رقبتها، فتسكت المسكينة وتبكي من الألم، وتدعو الله أن يساعدها ويحميها.

كانت رانيا تخدم الأم. كانت خادمة فعلاً، تعمل طوال النهار، وتدعو الله أن لا يعيد ذلك الجندي لا يعرف قلبه الرحمة. ظلت رانيا تعاني الألم لعدة شهور ودموعها لا تنقطع: "يا رب ارحمني، خلصني من هذا المجرم. يا رب لماذا تتركه يفعل بي هكذا، ألا تحب الأطفال؟ ما الذي أذنبته؟ لماذا هذا الظلم؟"

لم ينقذ رانيا من ورطتها سوى تبادل المخطوفين من كلا الجانبين، وكانت أمها وأهلها سجلوا اسمها واسم والدها للتبادل، ولكن والدها لم يعد، فقد مات؛ رأته يترنح على الأرض والدماء تسيل من رأسه. لقد أفرغوا فيه رصاصات الحقد الدفينة في قلوبهم.

استلم رانيا أحد المسؤولين في الحزب فأخذها وسلمها إلى والدي الذي اعتنى بها هو وأمي حتى تعرفنا إلى أهلها وأعدناها إليهم. لم نعرف حينها

قصتها، فلم تخبرنا بشيء، ولكنها حكته لي عندما كبرنا ووثقت بي، فهالني ما تعرضت له، وشرحت وضعها لأبي وأمي ليتحملاها معي.

كان أهلها من سكان بيروت، لكنهم بعد الحادث انتقلوا إلى صيدا، وقد زارونا أكثر من مرة يشكروننا على ما قدمناه لهم، ومن هناك تطورت علاقتي مع رانيا، منذ صغرها. كنت وهي عندنا في البيت ألعب معها. ارتحت لها وارتاحت لي، فشعرت أنها أختي، وشعرت أنني أخوها، لذلك عاشت رانيا تكره الزواج، وتكره الجنس لأنه يذكرها بالمجرم الذي اغتصبها، يذكرها به فوقها واضعًا سكينه على رقبتها، مهددًا إن رفعت صوتها.

الزواج يعني الجنس، والجنس يعني الماضي، يعني الألم، يعني المعاناة. لذلك تكره الحديث عن الزواج، فقدت كل رغبة به، فعندما قالت لك منذ البداية: "لا أريد الزواج"، كانت تعبر بصدق عما تحس به وتريده، وليس لأنها لا تحبك أو تكرهك، أو لأنها على علاقة بغيرك.

وأنت الآن ليس أمامك إن كنت تحبها إلا أن تتحملها، أو أن تصبح مثلي صديقًا وأخًا لها، وتتركها للزمن ليداوي جرحها."

كنت أستمع إليه وأنا لا أصدق ما يقول. تساقطت الدموع من عيني، كأنني في فيلم سينمائي.

- يا إلهي، كل هذا حدث لها؟

- نعم.. كل هذا حدث لها. علاقتي بها أنها بعد أن كبرت، وثقت بي،

فحكت لي قصتها وهي تبكي، ومنذ ذلك اليوم عاهدت نفسي أن أساعدها، وأقف معها، لهذا كلما يحدث معها مشكلة مع أحد تلجأ لي، وليس لأخيها أو أمها. أمها تحاول استغلالها، فهي تأخذ فلوسها منها وتتركها بقية الشهر تستدين من زميلاتها. تعيش في ظروف صعبة حتى أنها تشك بأمها بأنها على علاقة مع أحد الرجال الذي يسكن في بيروت، وقد رأتها مرة معه عندما كانت ذاهبة إلى البنك في صيدا.

لم أكن أعرف أن رانيا قد مرت بكل هذه الأزمات، لقد جئت أنتقم من فادي، ولكن ها أنذا، أتأثر من كلامه، وأتضامن معها.

يا لهول المصائب التي مرت بها هذه الشابة الفاتنة. لم أكن أعرف أن خلف عيونها مأساة بحجم لبنان كله.

الحرب الأهلية لم تكن حربًا بالسلاح، بل كانت حربًا بالثقافة، والأخلاق، والضمائر.

خلع الجميع الأقنعة عن وجوههم، وباعوا ضمائرهم وأخلاقهم، وارتكبوا الفواحش والآثام باسم الدين، وباسم الوطن، وباسم الرب ارتكبت الفظائع وانتهكت الحرمات.

والآن وقد هدأت الحرب، وأعلن عن اتفاق الطائف، من يا ترى يعيد لرانيا ابتسامتها الحقيقية؟ من يضمد جراحها؟ من يحاسب المجرم الذي ارتكب جريمته؟

قال لي وقد لاحظ دموعي وحيرتي:

– هل تعلم أن رانيا ليلة سهرت معها في "بيتي كافيه" كانت ستغير رأيها وتعتذر، لكني أصررت على ذهابها، وأشرت إليها ماذا تفعل. حاولت أن أخرجها من انعزالها وخوفها، ولكنها عادت بعد ذلك تؤكد خوفها من الزواج.

– أفهم من كلامك أن رفضها وفرحها كان مصطنعًا؟

صمت فادي لحظة ثم قال:

– ليس مصطنعًا، ولكن موجهًا.

لم أعرف ما أقول. لقد صدمتني الحقيقة، وهزتني من الأعماق. هل هذا سبب خوفها؟ ألأنها ليست عذراء؟ أم لأن ما حصل معها قد حولها إلى امرأة باردة تكره الزواج ومعاشرة الزوج لها؟

قال لي فادي قاطعًا تفكيري:

– تفضل لنشرب عصير الليمون، لقد أحضرته الخادمة.

كان لديهم خادمة سريلانكية تساعد الأم في لوازم البيت.

شربت العصير البارد، لكنه لم يبرد النار التي أشعلها فادي.

قال لي:

– هل تسمح لي بإحضارها؟

– أين هي الآن؟

- عند أمها.

لم أعترض، فاتصل بها وطلب منها الحضور إلى البيت. لم تسأله لماذا. وحضرت على الفور كأنها جندي في سريته ينفذ الأوامر دون نقاش.

عرفت أنني عند فادي، فقد شاهدت سيارتي أمام بيته، صعدت ودخلت الغرفة التي نجلس بها. سلمت علينا، فقال لها فادي:

- رانيا.. لقد شرحت لسامح قصتك القديمة فهو خطيبك، وغدًا زوجك، وعليه أن يعرف وله القرار.

نظرت إليه وفي عينيها سؤال، قال لها:

- رانيا.. سامح من حقه أن يعرف ليخرج من حيرته حتى لو انفصلتما، بدون ذلك سيشك بك وبي وفي كل شخص.

تنهدت قليلاً، فقلت لها:

- رانيا.. أنا على الرغم مما حصل، مستعد أن أصفح عن كل شيء، ومستعد للزواج منك، فماذا تقولين؟

فرد فادي على الفور:

- رانيا.. لا تفرطي بسامح، فهو عريس لا يتكرر. يكفي أنه يعرف قصتك، ومستعد لمساعدتك، والصبر على مشكلتك، وبالتدريج سوف تتجاوزين عقدتك.

قلت لها:

- أنا اليوم متمسك بك أكثر من الماضي ألف مرة.

(١٢)

ها هي علاقتي مع رانيا عادت، وعدنا كما كنا. بعد معرفتي لوضعها حزنت عليها، وقضيت الأيام والساعات وأنا أفكر كيف يمكن لإنسان عاقل أن يغتصب طفلة عمرها ١٠عشر سنوات؟ أهكذا أدت بنا الحرب الأهلية؟ ترى كم رانيا خلقت تلك الحرب؟ وكم إنسان مجرد من إحساس لا يزال يعشش في قلب المجتمع اللبناني؟

يا لهذا الحقد الطائفي البغيض! يريدون جرنا إلى حرب جديدة لينهبوا البلد من جديد. ليغتصبوا أطفالنا. لا لن نسمح لهم. لن نسمح للفتنة أن تطل برأسها. لن نسمح لملوك الأحزاب أن يشعلوها من جديد. سندافع عنها. لن نسمح لهم أن يحولوا كل بنت لدينا إلى رانيا جديدة. لن نحقق أحلامهم. ستكون رانيا في عيوني. سأتحمل كل ما يصدر عنها.

الآن أعرف حالتها النفسية، ولماذا كانت ترفض الزواج. سأصبر عليها. سأتزوجها حتى لو لم أعاشرها معاشرة الأزواج. لم يعد يهمني ذلك الشيء الذي يفعله الرجال. كل ما يهمني أن تخرج رانيا من حالتها وتتخلص من تاريخها الأسود.

قلت لها في لقاء معها بحضور فادي الذي أصبح صديق العائلة، بعدما كنت ألعنه، صرت أشعر أنه صديقي، صديقي العزيز. صرت أتصل به يوميًّا. يا لتلك المفاجآت! فبعد أن كنت أكره اسمه صرت أعده صديقي.

سبحان الله.

– رانيا.. لماذا لا نتزوج، وتنتقلين إلى بيتك بعيدًا عن أمك ومتاعبها؟

قالت لي:

– بشروط.

– وما هي؟

– أولاً أن يتم ذلك بدون حفلة وطبل وزمر. فقط جلسة عائلية صغيرة. وثانيًا ستعرفها فيما بعد.

قلت لها:

– موافق دون تردد.

بعد أسبوعين كنا قد عقدنا القران. انتقلت بها إلى بيتنا الجديد. شقة جاهزة استأجرناها في منطقة عبرا بـــ ٢٠٠ ألف ليرة في الشهر، كانت في حينه حوالي ١٢٠ دولار تقريبًا.

دخلت معها الشقة. دخلت إلى غرفة النوم فدخلت وراءها، نظرت لي ثم قالت:

– سامح.. هل يمكن أن تنتظر قليلاً في الخارج؟

قلت في نفسي، لعلها تريد أن تحضر لي مفاجأة. خرجت إلى غرفة الجلوس.

قالت لي:

- انتظر حتى أعود.

بعد انتظار طويل، عدت لأفتح الباب فإذا به مغلق، فناديتها:

- رانيا.. حبيبتي أما زلت مشغولة؟

قالت لي بهدوء:

- حبيبي.. نام الليلة في الصالون وحدك.

- رانيا.. ماذا تقولين؟

- كما سمعت.

- أرجوك أن تفهميني. هل تخافين مني يا رانيا؟ افتحي وأنا أعدك أن لا ألمسك الليلة.

- لن أفتح الليلة.

فعدت إلى غرفة الجلوس، ونمت هناك وحدي.

كانت العائلة كلها والأصدقاء عاتبون على هذا الزواج الناشف. أمي كانت تبكي. لم يتصوروا أن سامح يتزوج بدون احتفال. وحده أبي الذي لم يعارض لأنه لو أقيم الاحتفال فلن يحضره. كنت أحاول أن أتقرب منها كل ليلة، لكنها كانت تصر أن أنام وحدي.

لاحظت صبيحة أحد الأيام أنها كانت تحتفظ تحت وسادتها بسكين،

وعندما سألتها عن سبب وجود السكين قالت:

- لأدافع عن نفسي.

قلت لها:

- ألا تثقين بكلمتي؟

- بلى، ولكن ليطمئن قلبي.

- فلماذا هذا الخوف؟

- لا أعرف. شعور غريب يتملكني كلما فكرت بأنك ستكون فوقي. لا أتحمل ذلك الشعور.

بدأت تجهش بالبكاء.

أعرف أن حالتها صعبة، ولكنني لأول مرة أواجه ذلك الموقف الصعب. لا أعرف ما هو الصح، وما هو الخطأ. بعد يومين توجهت إلى طبيب نفسي أسأله عما أواجهه، فقال لي بعد أن سمع مني إجابة على كل أسئلته:

- ما تواجهه أمر طبيعي. لا يوجد حل سحري. عليك الصبر. ربما لو ذهبت معها في رحلة عسل خارج لبنان تحاول أن تنسى ما حصل. لو استطعت أن تقيم معها ولو علاقة واحدة ستكسر الحاجز الذي يفصل بينكما. لقد فعلت كل ما قاله الطبيب، ولكن لم تقبل أن تخرج من لبنان، وأصرت على أن أنام بعيدًا عنها، بل أصبحت تطالبني بالمبيت خارج البيت. بعض الأصدقاء كانوا يباركون لي ويلومونني لماذا لم أدعُهم إلى الاحتفال، وهم لا

يعرفون ما أنا فيه. وحده فادي الذي كان يعرف كل شيء قد قال لي: "ستعاني الكثير يا سامح. لقد اخترت أن تقف معها دون أن تعرف ماذا سيكلفك ذلك، وما تراه اليوم من يدري قد يكون البداية".

صرت أتساءل وأنا أجلس وحيدًا: ماذا سيكون مصير أولادنا؟ هل سيولدون وهم يحملون عقد أمهم؟ بصراحة لم أكن أفكر بذلك من قبل، لكني على الرغم من تضامني مع رانيا أصبحت دائم التفكير؛ ما مصير أولادنا؟

استسلمت للأمر الواقع. لم أعد أسألها عن المعاشرة. نقلت أغراضي إلى الغرفة المجاورة، وصرت أنام هناك. تركت الأمور تسير على طبيعتها، وقد ارتاحت لذلك. كانت تقوم بواجبها البيتي على أكمل وجه؛ غسل، وطبخ، ونادرًا ما كانت تغادر البيت، ولكن عندما أحاول الاقتراب من غرفة النوم تصاب بذعر شديد، وتطلب مني الخروج منها.

زارنا الكثير من الأقارب؛ أمي، وأخي كامل، وأخي وليد، وزاهي، وزوجاتهم، لكن أبي وأختي رفضا زيارتي، كما زارنا بعض أقاربها. كانوا جميعًا يسألوني: متى سيطل الطفل الأول؟ كانت تضحك وتقول لهم:

- عندما يريد الله.

- نعم.. عندما يريد الله.

(١٣)

هنا كورنيش صيدا. انظروا يا أولادي كم هو جميل! هذا البحر يحمل في طياته قصصًا من التاريخ، بل يحمل التاريخ كله، فعلى شاطئه أقيمت حضارات، واندثرت غيرها، وهنا تمامًا كان والدكم يقضي ساعات طويلة يناجي البحر وحده ويبث له أشواقه.

قالت لي عواطف:

- جميل شاطئ صيدا، ولكن بصراحة شاطئ جونية أجمل؟

فقال الأولاد وقد زاروا الاثنين:

- نعم، فهذا الشاطئ غير جميل!

ليتهم يعرفون ماذا يعني هذا الشاطئ لوالدهم، إنه أجمل من كل شواطئ العالم. هنا تكمن ذكريات. هناك فوق تلك الصخور كم جلست معها. هناك بجانب بائعي الجلاب كم جلست أتناول الكعك مع الجلاب. آه يا شاطئ صيدا.

كم تنزهت هنا مع فادي نتناقش في مشاكلنا! مشاكلنا؟ لا.. إنها مشكلتك وحدك. أنت الذي كنت ترمي بنفسك في المشاكل. أنت الذي كنت لا تعرف كيف تتصرف. اعترف بغبائك يا سامح. اعترف بحبك الفاشل، بل اعترف أنك كنت واهمًا. ضيعت سنوات من عمرك تلهث خلف سراب. انظر إلى

بسمة عواطف بجانبك. انظر للأولاد كيف يلعبون ويركضون على شاطئ صيدا، بينما كنت أنت في ذلك الزمن تندب حظك التعيس كأنه ليس في العالم كله إلا رانيا.

كنت تبحث عن فادي في كل شيء، بعدما كان غريمك صار كاتم أسراركما، تستشيره في كل شيء. ألم يكن ذلك غباء؟ هل تنكر ذلك؟

هل تذكر عندما عدت إلى البيت في أحد الأيام، فرأيتها ممدة على السرير وبجانبها علبة الدواء، وورقة مكتوبة بخط اليد. قرأت الرسالة بسرعة، فكانت كما يلي:

"زوجي العزيز سامح

أخي العزيز فادي

لقد أتعبتكما كثيرًا. حاولت أن أتغلب على عقدتي الماضية فلم أستطع. لقد جلبت لكما المصائب والشبهات والقلق والأرق. أنا المسؤولة عما حل بكما. وها أنذا أضع حدًّا لكل ذلك. لقد قررت الانتحار لأريحكما مني. أرجو أن تسامحاني، وتصفحا عني. الوداع.. الوداع.. الوداع."

رانيا تنتحر، اتصلت على الفور بالإسعاف، وبعد ثوان اتصلت بفادي:

- فادي.. الحقْ رانيا انتحرت.

- أين وكيف؟

- هنا في البيت. شربت علبة كاملة من دواء النوم. تعال بسرعة.

بعد دقائق كان فادي عندي في البيت قبل أن تصل سيارة الإسعاف. حرك يدها. نظر إلى حركة بطنها. قال لي:

- لا تزال تتنفس.

فجأة فتحت عينيها قلت لها:

- رانيا.. ماذا حصل؟

لكنها عادت وغابت عن الوعي قبل أن تسمع السؤال. قرأ رسالتها، وقال لي:

- قلت لك ستتعب معها. الله يعينك عليها.

نظر لي وقال:

- خطرت لي فكرة.

- ما هي؟

- ما رأيك أن تنام معها الآن، وعندما تستيقظ تعترف لها بما حصل لربما تنفك عقدتها.

سخرت من رأيه وقلت له:

- لا لن أنام معها كالبهائم. الجنس ليس هدفًا، إنه جزء من عملية عاطفية، وتبادل مشاعر وأحاسيس.

جاءت سيارة الإسعاف ونقلناها إلى المستشفى. هناك أجريت لها بسرعة

عملية غسيل للمعدة بعد إجراء التحاليل اللازمة، فاستعادت وعيها بعد ساعات.

حمدنا الله على سلامتها. لم نبلغ أحدًا من العائلة، ولا حتى أمها وأخاها، فماذا سيفعلان لها؟

سألتها في اليوم التالي بعد أن عادت إلى وضعها الطبيعي:

- لماذا فعلت ذلك؟

- حتى أريحك مني.

فقال لها فادي وقد كان حاضرًا:

- ولكنك بذلك تجلبين له الشبهة، وقد يتهمونه بقتلك!

- لا.. لن يتهمه أحد، لذلك كتبت رسالتي بخط يدي.

- لكننا لم نتهمك بجلب المشاكل.

- لا حاجة لأن تقولا شيئًا، فأنا أعرف ما تعانيانه بسببي.

قلت لها:

- رانيا.. أنا بحاجة إليك.

فقال فادي:

- وأنا أيضًا بحاجة إلى أختي رانيا.

- وأنا أيضًا بحاجة إليكما. نعم.. بحاجة إليكما، ولكني أجلب لكما المشاكل. أنت زوج على ورق، وأنت أخ لأخت لا تجلب الخير لأخيها.

ابتسمت في وجهها وقلت:

- رانيا.. الحمد لله على سلامتك، والآن دعونا نذهب إلى البيت، أرجو ألا تكرري ما حصل فنحن دائمًا بحاجة إليك.

وضعت يدي على رأسها، حرارتها انخفضت. الطبيب قال بإمكانها أن تغادر بسلام.

(١٤)

مرت الأمور بسلام، لكني بقيت زوجًا على ورق. تنام بغرفتها وتغلق الباب بإحكام، وعندما أسألها:

– لماذا تغلقين الباب؟ أتخافين مني؟ ألا تثقين بي؟

تقول لي:

– سامح.. أرجوك لا تكرر الأسئلة نفسها كل مرة وتشعرني بالذنب. هكذا أنا. أعدك أن أتغير.

كانت أحيانًا تقول لي: "لماذا لا ندعو فادي ليسهر معنا". فندعوه، وعند منتصف الليل تنسحب قائلة: "يمكنكما السهر معًا حتى الصباح. لن يزعجني صوت التلفاز". وبالفعل نبقى وحدنا أنا وفادي في غرفة الجلوس، فلم يعد هناك سر يمكن إخفاؤه.

كان يقول لها دائمًا:

يا رانيا.. يجب أن تتغيري. حرام عليك، يكفي!

حتى أنه أحيانًا يصرخ عليها، فترد عليه بغضب:

– اخرس. هذا ليس من اختصاصك.

فيقول لها:

- آخ لو كنت أنا سامح، لكسرت رأسك.

- لن تقدر.

ضحك وقال لي غاضبًا:

- هذه زوجتك، وأنت حر بها.

وغادر البيت.

وبعد أن انصرف شعرت بالذنب، فبدأت تتصل به لكنه لم يرد، فقالت لي:

- اتصل أنت به وصالحه.

قلت لها:

- اتركيه حتى الصباح.

لكنها لم تهدأ حتى اتصلت به. فقال لي صارخًا: "دعوني بحالي، الله يخليكم. أنا ما لي وما لرانيا". ثم أغلق الخط.

كنت سعيدًا أنها اختلفت معه. اعتقدت أن الأمور ستهدأ، لكنها زادت اشتعالاً.

قالت لي:

- أنا لا أستطيع النوم معك في البيت نفسه.

فسألتها:

– لماذا؟ أليس هذا ما نفعله كل يوم؟

فقالت لي:

– نعم هذا ما نفعله، لكن الأمور تغيرت الآن.

– وما الذي تغير؟

– لا أعرف. سامح.. إما أن تغادر البيت أو أغادر أنا.

قلت لنفسي:

– أستغفر الله العظيم على هذه المصائب. يا رب. ما الذي أذنبته معك حتى تعاقبني؟

هكذا اختصرت الشر، واعتبرت مغادرتي البيت جزءًا من الضريبة التي أدفعها لكي أخلصها من عقدتها.

غادرت البيت، ولأنني لم أرد أن أزعج أحدًا من أهلي وأعلمهم بمصيبتي، فقد نمت في السيارة على كورنيش صيدا. كنت كلما مرت سيارة أستيقظ على صوتها. أحمد الله أنه لم ينتبه لي أحد الدرك لاشتبه بي، إذ ماذا يفعل رجل متزوج نائم في سيارته على كورنيش صيدا؟

تكررت الأحداث، وكلما هدأت الأمور لعدة أيام عادت واشتعلت لسبب جديد، فمرة لأن شادي غضب، وأخرى لأنها غير مرتاحة، وثالثة لأنها خائفة. صرت أشعر بأنني ورّطت نفسي بمصيبة لا فكاك منها. بدأت مشاعر الحب تهتز، ولم يكن لديها من حديث سوى فادي، فإذا أكلنا تسألني:

- لماذا لم يأت معك، فالأكل يكفي لعشرة؟

- حبيبتي.. الرجل مشغول.

كلما هدأنا وجلسنا معًا، تتصل به، حتى بدأت أعود إلى سابق عهدي، أشك في علاقتها بفادي. هل يمكن أن تكون تحبه؟

كنت متأكدًا أن فادي لا علاقة له بها، وتعرفت إلى صديقته مي التي ينوي الزواج منها، وحدد معها موعدًا للخطوبة الرسمية، ولكني بدأت أشعر أن رانيا هي التي تحب فادي، وتريد استمالته إليها، ولكنها فشلت.

في لقاء فجائي جمعني به، قلت له:

- فادي.. أنا بصراحة أشك أنها تريدك، فهل أنت...

قاطعني:

- سامح.. قلت لك ليس بيني وبينها أية علاقة ولا حتى مشاعر حب، وأقول لك بدون زعل حتى لو لم أكن على علاقة مع مي لن أتزوج رانيا. أنا لا أشعر تجاهها سوى بمشاعر الأخوة.

- ولكني يا فادي أشعر أن مشاعرها تجاهك غير ذلك.

- سامح.. هي تتقرب مني لسبب بسيط وهو أنني لست زوجها، فلا أفكر بمعاشرتها، فتشعر بالثقة. أنا متأكد أنني لو كنت معها في البيت لوحدنا، ستنام في غرفتها بدون أن تغلق الباب لأنها واثقة أنني لن أقترب منها، ولكنها تخاف منك لأنك زوجها، تريدها، تنظر إليها نظرة الأزواج. لهذا

تخاف منك. تغلق الباب عليها بالليل حتى أنها تخاف منك لئلا تكسر عليها الباب.

- على الرغم من ذلك أريدك أن تساعدني في قتل الشك في داخلي.

- أنا تحت أمرك، ماذا تريدني أن أفعل؟ هل تريدني ألا أتصل بها؟

- أريدك أن تتصل بها الآن أمامي وتقول لها: "رانيا لقد أقنعت سامح أن يطلقك، وسوف أتقدم أنا لخطبتك ونتزوج".

- ولكني سأظهر أمامها بأني رجل لا عهد له ولا وفاء؟

- لا تقلق أريد أن أمتحنها.

- لن توافق صدقني.

- ماذا لو وافقت؟

- ستكون نهاية علاقتي بها، وربما بك أنت.

- ولماذا أنا؟

- لأنني سأكون موضع شك عندك. لكني واثق أنها لن توافق.

- جرّب لنرَ.

- ومتى تريدني أن أفعل ذلك؟

- الآن؟

- بسرعة؟

- نعم.

كنت أخشى أن أقول غدًا فيتصل بها وينسق معها ماذا تقول.

قال لي بعد صمت قصير:

- أنا جاهز.

رفع هاتفه النقال، واتصل بها، فردت عليه:

- أهلا فادي. لم أسمع صوتك منذ يومين؟

- اسمعي رانيا.. اليوم التقيت مع سامح، وأقنعته أن يطلقك، وبهذا ترتاحين منه، وأنا سأتقدم للزواج منك ونعيش معًا، وتحققين حلمك بالزواج من فادي.

صرخت رانيا غير مصدقة:

- ماذا تقول؟ أقنعته أن يطلقني لتتزوج مني؟ يا خائن؟ أكلت معه العيش والملح وتريد أن تخونه؟ تقول إنه صديقك؟ هل هذه هي الصداقة؟ عينك على زوجته، تفوه عليك يا خائن. يلعن أباك، يلعن أمك، يا حيوان، يا كلب، يا خائن العيش والملح.

كانت تبكي وهي تلعن وتشتم وأغلقت الخط.

نظر إلي وقال لي:

– أسمعت؟ هل اقتنعت الآن أنها لا تشعر تجاهي بمشاعر عاطفية؟ هل انبسطت الآن بعد أن سمعتها تشتمني، الحيوانة. علاقتها معي علاقة أخوة لهذا تثق بي. ولو كنت صديقًا لها، وليس زوجًا لوثقت بك أكثر. الآن من يصلح الأمر؟

لم يكمل فادي حديثه. فجأة رن الهاتف عندي. نظرت فإذا بها رانيا، قلت له أن يصمت.

– ألو.. رانيا.

كانت تبكي على الخط.

– سامح.. فادي خائن. لقد خانك. لا أريد أن أرى أحدًا، لم أعد أثق بأحد.

قاطعتها:

– ماذا حصل أفهميني.

– فادي يطلب مني...

– أن أطلقك ويتزوجك؟

– هل قال لك ذلك؟

– فادي بجانبي وأنا الذي قلت له أن يتصل بك.

– لماذا فعلت ذلك؟

– كي أقطع الشك باليقين، وكي يثبت لي أنك صادقة بمشاعرك

وأحاسيسك تجاهي.

ارتاحت قليلاً، وقالت:

– ولكن كلامه أثارني، وأنا متعبة الآن، وقد شتمته، أرجو أن تعتذر له إذًا، وأن تتوقف عن تلك الحركات.

– سأعتذر له وأقبل رأسه، وهو معي يستمع لاعتذارك.

قال لها فادي:

– سامحتك رانيا. لكن ليتك تتقدمين خطوة نحو سامح.

ردت وهي تبكي:

– إن شاء الله. أنا أدعوكما إلى العشاء، سأجهز عشاء ملكيًّا.

– رانيا تجهز عشاء ملكيًّا؟ غير معقول! سنحضر إذًا معًا.

(١٥)

لم أكن أعرف أن الحب يمكن أن يصل إلى القمة ثم يبدأ بالانحدار. لم أعرف أن الحب يمكن أن تبرد ناره ويصبح لعنة على صاحبه إلا بعدما تزوجت رانيا، وعانيت ما عانيت منها. قلت في نفسي: لعل الغيرة تغيرها. فاتفقت مع فادي على أن نخرج ونسهر معًا ونتركها وحدها في البيت، وكان يخبرها أننا ذهبنا إلى إحدى الكازينوهات حيث النساء والراقصات، وكان فادي يتعمد إثارتها، ولكنها أبدًا لم تتغير. فقال لي فادي:

- سامح. عليك اقتحام غرفتها، ولا تهتم بصراخها، فنحن لسنا في أمريكا. القانون هنا يلزمها أن تبقى في بيت زوجها.

عدت في أحد الأيام. فتحت الباب. لم تكن في غرفة الجلوس. تقدمت إلى غرفة النوم بدون أن أُحدث ضجيجًا. كانت نائمة، لعلها قيلولة النهار. لأول مرة أرى زوجتي في ملابس النوم. يا للمفاجأة! لم يكن الباب مغلقًا. ربما لأنها لم تتوقع حضوري. دخلت إلى الغرفة. خلعت ملابسي واستلقيت بجانبها. أحست بي. استيقظت مرعوبة. حاولت الهروب. أمسكت بها، فقاومتني، عاركتها كأنني في معركة. كنت أعلم أنني يجب ألا أعاشرها بالقوة، لكنني أردت كسر حاجز الخوف لديها.

بعد أن تحكمت بها تمامًا ويداها غير قادرتين على الحركة قلت لها:

- لن أفعل بك شيئًا، ولكن لو أردت سأفعلها ولا أحد يمنعني. توقفي

وتقدمي ولو خطوة تجاه زوجك.

ثم تركتها وخرجت من غرفتها.

كانت تبكي بحرارة، وجسمها يرتعد. لا أعرف إن كنت قد فعلت الصواب أو أخطأت؟ لا أعرف هل كان يجب أن أكمل ما عزمت عليه أم أنني فعلت الصواب حين توقفت؟ وإلى متى؟ إلى متى الانتظار؟ هل يمكن أن تظل هكذا؟

خرجت بعد فترة، لابسة ملابسها العادية تصرخ بي وكأنها أسد يهجم على فريسته. لعلها رأت بي ذلك المجرم الذي كان يغتصبها. غابت صورة الزوج/ الحبيب، ولم تبق سوى صورة المجرم الذي مارس جريمته.

كانت رانيا قد نسيت نفسها، وعادت تتقمص شخصية رانيا الطفلة البريئة المرتعبة التي لم يغب عن بالها أن مغتصبها هو قاتل أبيها فكيف سيكون حالها. اقتربت مني صارخة:

– لماذا فعلت هكذا؟ يا حيوان، كيف تتجرأ وتفعلها؟ أنسيت عهدك؟ أنسيت وعدك؟ هكذا تتجرد من كل إحساس؟ أهكذا كل ما تريدونه؟

طلبت منها خفض صوتها، وعندما لم ترتدع، يبدو أنني فقدت أعصابي، وقفت ودفعتها من أمامي، ثم ضربت بقبضة يدي كل ما حولي من مسجل، وجهاز حاسوب، وآلة طابعة، وتلفاز، فكسرت كل شيء.

عندما رأت ما فعلت، وشاهدت ثورتي غير المتوقعة وخروجي عن طوري تراجعت وأجهشت بالبكاء.

كانت ثورتي هذه المرة عارمة، وكدت أن أحطم رأسها، وقد شعرت بخطورة الموقف بعد أن انسحبت من أمامي وغادرت المنزل. لم أطلب منها العودة، بل قلت لها: إن ذهبت لا تعودي. كان صوتي عاليًا لدرجة لم يبق جار إلا وسمع شجارنا.

غادرت المنزل بدون أن تنبس بكلمة. تركتني وأنا ثائر في بركان ألعن حظي. كنت أتساءل وأنا في قمة الغضب: لماذا صممت على الزواج منها؟ لماذا لم أقتنع بموقفها أنها لا تريد الزواج؟ هل الحب يجب أن تكون نهايته الزواج؟ ماذا أفعل أكثر مما فعلت؟ لم أعد أستطيع التحمل، لم أعد أطيق كل هذه المشاكل. الحل؛ الطلاق!

نعم.. الطلاق. تريدني صديقًا. حسنًا لنبقى أصدقاء. سأبقى بجانبها، سأساعدها على أن تنهض من مشكلتها بدون زواج. لعل الطلاق يعيدها إلى صوابها.

جلست وحيدًا في البيت، لا أدري ماذا أفعل، فجأة اتصلت بفادي وقلت له:

– فادي حصلت مشادة كلامية بيننا وقد غادرت المنزل سيرا على الأقدام دون أن تأخذ معها هاتفها.

قال فادي:

– سامحكم الله. أنا الآن مشغول مع زبون سيشتري سيارة. حسنًا سأحوله إلى الموظف عندنا، وسأتصل بك بعد قليل.

خرج فادي يبحث عنها في الطريق إلى البيت فلم يجدها، فذهب إلى

الكورنيش فرآها هناك جالسة بعيدًا عن الناس، وجهها أحمر يثير انتباه كل عابر للطريق، ناداها من بعيد، فجاءته باكية. قال لها اصعدي، فصعدت إلى السيارة.

سألته:

- إلى أين؟

فقال لها:

- إلى بيتك.

- لا أريد الذهاب إلى البيت.

فصرخ بها:

- وهل تريدين البقاء في الشارع تجلسين وحدك بوجهك الأحمر وعينيك الذابلتين من الدموع؟ ماذا سيقول الناس؟

- لا أريد أن أرى سامح.

- بسيطة.. الآن نبحث الأمور بهدوء، لا تنسي سامح زوجك، وعليك واجب الطاعة.

- الطاعة؟ طبعًا أنتم الرجال تدافعون عن بعض.

- ألا يعجبك سامح يا رانيا؟ سامح الذي فتح لك عقله، وقلبه، وجيبه، وبيته؟ سامح الذي تحملك، وتحمل كل عقدك، ومشاكلك؟ وتحمل غضب

أهله عليه بسببك؟ سامح الذي لم يسمع كلام الناس واختارك أنت؟

– لقد أهانني اليوم.

– لنفترض أنه أهانك ولو؟ سامحيه. كم مرة سامحك؟

وصل فادي ورانيا البيت. صعدا إلى الشقة. دخلاها فقد كان الباب مفتوحًا. رأى فادي ما حصل، والزجاج المتطاير على الأرض. فقال معلقًا:

– يبدو أن المعركة كانت حامية؟

صمت ثم قال:

– أهذا ما قدرت عليه يا سامح؟ بدل أن تكسر هذه الأشياء التي ستدفع ثمنها من جيبك كان يجب أن تكسر رأسها.

فصاحت رانيا:

– أتحرضه علي؟

فقال لها:

– يا رانيا.. لولا أنك أذنبت لما فعلها. لأول مرة أراه منفعلاً إلى هدا الحد.

تقدم مني فادي وقال:

– يا سامح.. ما أغضبك؟

وقبل أن أجيب قال لها:

- اذهبي وهيئي لنا شيئًا نشربه. كل ما تكسر يمكن إصلاحه.

ذهبت رانيا إلى المطبخ. سألني:

- ماذا حصل؟

قبل أن أشرح شيئًا تابع قائلاً:

- كان الله في عونك. لا أدري ماذا أقول لك.

عادت رانيا وقدمت عصير الليمون، وجلست أمامنا. قالت لنا:

- سامح، فادي.. أرجو أن تسمعاني جيدًا. لقد عذبتكما كثيرًا، ولا أريد أن تتحملا أكثر من ذلك.

أنا أرى أن أفضل حل هو الطلاق. سأعود إلى بيت أهلي وأجد عملاً، يمكنكما مساعدتي في إيجاد عمل، وسأكون أختكما التي لا تنسى معروفكما.

قال لها فادي:

- رانيا.. لا تتسرعي كما تتسرعين دائمًا. ألا يوجد لديك حل سوى الطلاق؟

- نعم.. لأنه الحل الذي يريحني، ويريحكم. عقدتي ومشكلتي هي الزواج. إذا ألغي من حياتي سأكون الأخت المطيعة.

فرد عليها:

- ولكن هل ستبقى أمك وأخوك لك طوال العمر؟

– إن الله لا ينسى أحدًا.

فرد عليها:

– كل شيء ستقولين لي الله لا ينسى أحدًا. أعرف ذلك. لكن الدنيا تحتاج إلى تدبير. إذا كان الأمر كما تفسرين، فلماذا نسيك عندما كان المجرم يرتكب جريمته معك؟

كانت تبكي بغزارة وتنظر إلى الأرض.

قالت والدموع تسيل على خدودها:

–هذا نصيبي. ربما أراد الله أن يبتليني ليكون لي إخوة من غير أمي.

قلت لها:

– لا إله إلا الله. إن كان هذا قرارك النهائي وتشعرين أنك لن تتغيري، وترفضين الذهاب إلى الطبيب النفسي، فأنا سأتنازل عن رفضي، وأوافق على الطلاق.

فقال لها فادي:

– تعرفين أن المرأة التي تطلب الطلاق لا حقوق لها في المحكمة الشرعية؟

فقالت لنا:

– حقوق؟ أنا مدينة لكما أصلاً، فهل أسأل عن حقوق؟ لو كان معي نقود

لأعطيتها لسامح دون حساب. لا أريد سوى أن تسامحاني.

وقفت وذهبت إلى الغرفة الأخرى، ثم عادت تحمل ورقة وقلمًا، وكتبت ما يأتي:

إقرار واعتراف

أنا الموقعة أدناه رانيا الصيداوي.. أعترف وأقر اليوم بأنني طلبت الطلاق من زوجي سامح، الذي كان مثالاً للزوج المخلص والوفي والأمين، وأنني أتنازل له عن كل حقوقي، وليس لي في ذمته أي شيء، وأنني مدينة له بالكثير مما قدمه لي، وعاجزة عن شكره وسداد دينه.

إن طلبي الطلاق من زوجي سامح ليس لعيب فيه أو لخلل من جانبه، ولكن لأنني زوجة غير قادرة على القيام بواجباتي الزوجية.

اللهم اشهد

التوقيع: رانيا

أعطت الورقة لفادي، وبعد أن قرأها مسك القلم ووقع بجانب توقيعها كشاهد.

ماذا تنفع الورقة بعد أن هُدم كل شيء؟ ماذا ينفع الحزام (حزم الجمل) إذا ضاع الجمل؟

وضعت الورقة في جيبي لا أدري لماذا، لعلني كنت أريد أن أقنع نفسي بما حصل.

في اليوم التالي توجهنا إلى المحكمة. فوجئ القاضي بطلبنا الطلاق.

قال لنا:

- يا أولادي.. لم يمض على زواجكما سوى أشهر قليلة.

قلت له:

- سيدي القاضي.. إنه خيارها وقد نفذت طلبها.

فقال لها:

- يا ابنتي.. إن أبغض الحلال عند الله الطلاق. هل قصر زوجك بشيء؟

- أبدًا، إنه أفضل زوج على وجه الأرض.

- إذًا لماذا يا ابنتي؟

فقالت له:

- لا أستطيع أن أقوم بواجباتي الزوجية.

قالتها وهي تبكي.

حاول القاضي أن يثنيها عن قرارها، لكنها أصرت عليه، فطلب منها أن تردد خلفه ما يقول. وبعد ذلك صادق القاضي على القرار، وقال لها:

- لا يحل لك العودة إليه إلا بمهر جديد وعقد جديد لأنك خلعته.

غادرنا المحكمة. كان فادي ينتظرنا في المحكمة.

قلت له:

- أوصلها بيت أهلها، واشرح لهم ما حصل، فأنت الشاهد على كل شيء، والبيت مفتوح متى شاءت تأتي لتحمل أغراضها منه، ولتأخذ ما تشاء.

(١٦)

منذ طلاقنا وأنا متشائم. شعرت كأنني خسرت شيئًا. خسرت الرهان. خسرت أول جولة حقيقية في الحب. كأن الحب لم يعد مجرد عواطف ومشاعر إنسانية، بل يحتاج إلى تجارب وبراهين أشبه بالتجارب العلمية. النتائج هي التي تحدد المعادلات.

نتائج حبنا فشلت. هذه التجربة المريرة وضعتني على المحك، وبت أتساءل: لماذا فشل حبنا؟ لماذا فشلت التجربة؟ من المسؤول عن ذلك؟ هل أنا المسؤول لأنني لم أستمع لنصائحها بعدم الزواج؟ أم هي التي لم تحاول أن تتقدم خطوة للتخلص من ماضيها الرهيب؟ تراها حاولت وفشلت؟ هل صحيح أنها لم تحاول؟ لماذا أحملها المسؤولية؟ لعلها بذلت كل ما تستطيع للتخلص من ذلك الكابوس فلم تستطع. لعله كابوس أقوى مني ومنها ومن الحب نفسه. أليس هو المسؤول عن ذلك الفشل؟ ذلك المجرم الذي قتلها وقتلني وقتل حبنا؟ كم مجرم في هذه الحياة يقرر في ساعة حقد وأنانية أن يقضي على أحلام الصغار؟

كثيرون أولئك الذين يتلذذون على جراح الآخرين وآلامهم، ولا يرون فيمن حولهم سوى وسيلة لتحقيق ملذاتهم، وكبريائهم المزيف.

هل لبنان المسؤول عما حصل؟ لبنان الذي لم يحم أبناءه، بل تركهم يتصارعون وينفذون ما أراده عدوهم منهم؟

من المسؤول عن إشعال الحرب الطائفية؟ من المسؤول عن تأجيج الحقد في قلوب الناس؟

من المسؤول عن تشجيع الناس على القتل والانتقام؟

يا رب.. ألا يتسع هذا العالم لكل عبادك؟ يا رب.. ألم تخلقنا كلنا سواسية لا فرق بين إنسان وآخر إلا بالتقوى؟ فلماذا يقتلون باسمك؟ لماذا يحرقون الأطفال باسمك؟ لماذا؟

كنت أبكي وأنا سابح في تساؤلاتي. كنت في وضع صعب. لا أعرف ماذا أقول.

يا رب.. لماذا تركته ينفذ جريمته؟ لماذا تركته ينفذ سمومه في أطفال أبرياء؟ اعذرني يا رب.. اعذرني. ألم يكن بمقدورك أن تمنعه؟ ماذا يفيدها أن المجرم سيعاقب يوم القيامة؟

أستغفرك يا رب.. لكن حكمتك أبعد من مستوى تفكيري.

توقفت عن التفكير، وبدأت أمسح دموعي، وأتنهد وأتذكر كل أوقاتي الحلوة معها وما أقلها، وأيامي المرة وما فعلته بي كل مرة.

قلت لنفسي وأنا حائر:

– لماذا لا يكون الحب إلا بالتقاء الجسدين؟ لماذا لا يكون الحب إلا بالوصال الجنسي؟ لماذا لا يكون الحب إلا بالقبلات واللمسات والهمسات؟ ألا يوجد في هذا العالم نوع آخر من الحب بين المرأة والرجل؟ أين الحب

الروحي؟ لماذا لا نجربه؟ ماذا لو أحب الرجل امرأة، ولم يستطع زواجها؟ هل ينساها؟ هل يظل يحلم بها؟ ألا يمكن أن يتمنى لها السعادة، ويجعل حبه لها حبًّا روحيًّا بعيدًا عن كل شهوة؟ ماذا لو أصبح الرجل عاجزًا جنسيا؟ هل يفقد شهوة الروح كما يفقد شهوة الجسد؟

ما الذي أريده من كل تلك التساؤلات؟

كأنني أقنع نفسي، بأن حبي لرانيا لم ينته، أو كأنني أحاول إنقاذه من الضياع. أحاول أن أعيده إلى الحياة! لماذا أعيده إلى الحياة؟ فهو لم يمت. ما زال حيًّا ينبض، لكني لم أعرف اتجاه بوصلته بعد. ها أنا أهتدي إليها من جديد. لكم قالت لي: "سامح أريدك أخًا وصديقًا". فلماذا أتركها تنهشها الذئاب كما نهشتها الثعالب سابقًا.

لن أرضى أن يسيء لها أحد.

بعد أيام عادت علاقتنا إلى طبيعتها. عدنا أصدقاء. سهرنا معًا أنا وفادي ورانيا أكثر من مرة. أصبحت أكثر انفتاحًا وثقة بي، فقد تخلصت من عقدة الزوج الباحث عن تضاريس جسدها.

لم أسلم من كلام الناس ولا من تعليقاتهم. الأهل لاموني. قال لي والدي مرة:

- يا سامح.. لقد طلقتها، فلماذا لا تزال تلتقي بها؟

- يا والدي.. لقد طلقتها كزوجة وبقينا أصدقاء.

– أصدقاء؟! هل جرى لعقلك حاجة؟! إن كانت تقبلك صديقًا فلماذا طلقتك؟

– لم نتفق.

ضحك ساخرًا ونادى أمي من المطبخ:

– أم كامل.. تعالي اسمعي حكم ابنك وفلسفة سقراط.

جاءت أمي تسأل:

– سقراط؟ من سقراط؟

أمي لا تعرف عن سقراط شيئًا، وكلاهما لا يعرفان عن الموضوع شيئًا، فماذا أقول لهما؟

قلت لها:

– أبي يسألني لماذا طلقت رانيا ولا تزال أحيانا تراها؟ فقلت له إننا اختلفنا كزوجين وبقينا صديقين.

قطبت أمي حاجبيها وقالت:

– أما زلت تراها؟ هل سحرتك؟ ألم تر غيرها في لبنان؟ لبنان مليء بالبنات أكثر من الرجال. دخيلك دعني أخطب لك إحداهن؟

ضحكت وقلت لها حتى أغير الموضوع:

– فكرة جيدة، لكن بعد فترة.

- لماذا بعد فترة؟

- لأتخلص نهائيًّا من بقاياها، وحتى لا أظلم بنات الناس.

أدارت ظهرها لتعود إلى المطبخ وقالت:

- "طول عمرك يا زبيبة..."

ضحك والدي وأكمل المثل.

أعرف أن ما أفعله غير مقنع، وكان علي ألا أدير ظهري لكلام الناس. من حق كل إنسان أن يدافع عن رأيه، من حقه أن يختلف عن الناس كلهم. لكن من الصعب أن يواجه مجتمعا بأكمله.

كان علي أن أضع حدًّا للشائعات. كان علي أن أقلل من لقاءاتي معها، وألا أخبر أحدًا بصداقتي لها، تلك الصداقة التي يعدها كثيرون مثيرة للضحك والسخرية، حتى أكثر الأصدقاء وعيًا كان يثيره ذلك ويتساءل:

- أصدقاء؟ زواج لم يصمد وتسميه صداقة. كيف؟ كيف سيتزوجها شخص آخر؟ إنك تسيء لها حتى لو كنت صادقًا في علاقتك معها. ماذا لو قررت الزواج من فتاة أخرى؟ هل ستقبل أن تراك صديقًا لزوجتك السابقة؟ لا.. لا.. هذا غير ممكن.

نعم هذا غير ممكن. قد يكون لصالحها تركها كي تتحمل نتائج قراراتها.

قلت لصديقي أسعد:

- هل تذكر عندما اقترحت علي الزواج، وقلت لي إنك تعرف بعض

الصبايا من عائلات محترمة في سن الزواج؟

– أذكر ذلك يا سامح، فهل أنت جاهز؟

– جاهز على الفور.

لم يصدق أسعد. نظر إلي وقال:

– الآن أنت سامح الذي أعرفه. لا تنس أنت سترى الآن صبايا من صنف آخر، لهن مكانتهن، فلا تسود وجهي مع الناس. دقق مليًّا قبل أن توافق، وتذكر أنك الآن في نظر الجميع رجل طلق زوجته أو طلقته.

– ماذا ستقول لهم عندما يسألون عن ذلك؟

– لا تقلق. دع كل التفاصيل الصغيرة علي. متى نبدأ؟

– من الآن؟

– حسنًا. غدًا سنزور أول عائلة. سأتصل بك وأخبرك الموعد.

وأخيرا قررت الخروج من صومعة رانيا، وسجنها، وقيودها. أحيانًا على الإنسان أن يتخذ قرارات صعبة في اللحظات التي تتوجب ذلك. لعلني تأخرت في اتخاذ القرار. كان علي من البداية ألا أضيع عمري باحثًا خلف السراب.

ذهبنا في اليوم التالي الساعة الثامنة مساء إلى بيت أحد أصدقاء أسعد. رجل في الخمسين من عمره، لديه أربع بنات غير متزوجات أكبرهن أصبح عمرها ٢٨ سنة، والبقية ٢٦، ٢٤، ٢٢ سنة. كان علي أن أختار إحداهن.

في لبنان النساء أكثر من الرجال لأن معظم المهاجرين بحثًا عن العمل من الرجال، ولأن الحرب الأهلية التي استمرت ١٥ عامًا حصدت الآلاف منهم.

كلهن جميلات. كنت خجولاً من هذه الطريقة في الزواج، فأنا رجل تعوّد ألا يكسر قلب أحد، وإذا اخترت إحداهن سيعني ذلك أنني لم أعجب بالباقيات. يا إلهي.. لماذا لا يعود اللبنانيون المغتربون إلى بلادهم ليحموا هذا الجمال من الضياع؟

جلسنا جميعًا كجلسة عائلية؛ البنات والوالدان وأنا وأسعد. تسامرنا، وشربنا الشاي. كنّ فتيات مثقفات، ثلاث منهن أنهين الجامعة الأولى، تخصص أدب انجليزي، والثانية تخصص علم اجتماع، والثالثة تخصص أدب عربي، وكانت أبرعهن حديثًا، أما الرابعة فلا تزال تدرس في جامعة بيروت العربية، تخصص إدارة أعمال.

الكبيرة تعمل في بنك بيبلوس سكرتيرة، أما البقية فعاطلات عن العمل كحال الآلاف من أبناء شعبنا. دمرتنا الحرب، ولا نزال نعاني آثارها.

قال لي والدهن الحاج صالح:

– فرصة سعيدة تعرفنا إليك يا سامح. وجودك في بيتنا يشرفنا.

– شكرًا يا حاج صالح. أنا الفخور بمعرفتك. الحقيقة أن لصديقي أسعد أصدقاء يعتز المرء بهم. كان يجب أن يعرفنا إليك من زمان.

قال أسعد مقتحمًا الحديث مع البنات:

– هذه سامية، تخصص أدب انجليزي، وتعمل في بنك بيبلوس، فإن كنت تريد فتح حساب هناك سترحب بك.

ابتسمت سامية وقالت:

– لكنه يعمل في البنك العربي، وليس بحاجة إلى بنك بيبلوس.

ضحكت وقلت:

– لا نستغني عن البنك اللبناني. أينما ذهبت فوجهتي لبنان.

ابتسمت وقالت:

– كيف العمل عندكم؟

– البنك لدينا دائمًا مليء بالزبائن، فالبنك العربي له فروع في دول عربية ودول العالم، غالبية الفلسطينيين في لبنان لهم حسابات فيه إضافة إلى اللبنانيين.

كان الحديث عن البنوك، ثم تفرع إلى أشياء كثيرة؛ عن الاقتصاد، وعن الأدب، وعن لبنان. طالت سهرتنا، ونسينا أنفسنا. فجأة قال أسعد:

– حان الوقت للمغادرة.

استدار إلى الحاج صالح وقال له:

– نشكرك على ضيافتك، وسنتصل بك قريبًا.

غادرنا بيته ونحن نلهج بالثناء على تلك العائلة المضيافة. كانوا فعلاً مثالاً

للعائلات اللبنانية في الكرم، والأخلاق، وحسن الحديث.

قال لي أسعد:

– سأتركك تفكر، فإن اقتنعت بإحداهن بلّغني، وإلا سنزور أخرى متى أردت.

قلت له:

– دعني أفكر الليلة.

فقال لي:

– بشكل أولي من أعجبتك؟

قلت له باسمًا:

– بصراحة.. الصغيرة أجملهن، والثالثة أفصحن، والثانية أرقهن، والأولى أطيبهن.

فقال لي:

– كأنك تريدهن كلهن.

وأتبعها بضحكة عالية فضحكت معه. قلت له:

– بصراحة.. أنا حزين على الأولى لأن عمرها ٢٨ سنة ولم تزل غير متزوجة. أخاف أن يفوتها القطار في لبنان.

فصاح بي:

– هذه مشكلتك مع رانيا يا سامح، دع الخلق للخالق. لا تستطيع أن تحل مشاكل كل العالم. يوجد مثل سامية الكثيرات، فهل تريد أن تتزوجهن كلهن؟ لن يقبلن بك. لا تنظر إلى هذه المسائل، ولا تهتم بمشكلة هذه ومصيبة تلك. فكر فقط...

فقاطعته قائلاً:

– بمصلحتي الخاصة؟

فقال لي:

– لا أقصد ذلك تمامًا. أقصد فكر بما جئنا لأجله. جئنا لترى أيهن أفضل لك كزوجة؟ أنت حر في خيارك. ربما تميل إلى هذه أو تلك، فالجمال يختلف من شخص لآخر. أنا مثلاً أعتبر الثانية سعاد أقربهن إلى القلب، ولو فكرت في الزواج ربما أتقدم إليها.

فقلت له:

– لماذا لا تتقدم إليها؟

فقال:

– سأفكر بالموضوع. لكن لا تغير السؤال. لا تنس أن تقرر الليلة. فكر بزوجة المستقبل، ولا تفكر بغير ذلك.

– حسنًا.. سأختار واحدة من ثلاث.

– من أربع.

- لقد تنازلت عن واحدة.

- من هي؟

- سعاد. أنسيت؟

فضحك أسعد حتى بانت كل أسنانه.

(١٧)

قبل أن أخلد إلى النوم في شقتي التي أسكنها وحدي كنت أفكر فيمن رأيت. كنت أستعرضهن أمامي؛ أيهن الأفضل لتكون زوجة لي؟ حاولت أن أخرج من قيد سامية الجديد، لا أريد الخروج من مشكلة رانيا لأقع في عقدة سامية. لقد قالها أسعد حقًّا: "لست مسؤولاً عن مصائب العالم". نعم لستُ مسؤولاً عن ذلك. هناك مثل سامية الكثيرات، وهناك من هن أكبر منها سنًّا. يا لهذه الحياة المليئة بالمصائب والنكبات، كأن الحياة كلها مصائب، ومن يفلت منها فهو المحظوظ.

احترت في خياراتي وقلت لنفسي: لماذا أخذني لأرى أربع فتيات مرة واحدة؟ حسنًا لنجعلهن ثلاثة، سأترك سعاد لأسعد. بالنسبة إلى الصغيرة فهي ما زالت طالبة جامعية، لذلك علي الاختيار بين عروس الأدب الانجليزي والعربي. أرى أن لمياء أعذبهن حديثًا، وأبحرهن أدبًا، وأنا أحب الأدب. لقد

كنت أكتب الشعر قديمًا، فلماذا توقفت عنه؟ لعلها تتحفني غدًا بروائع الأدب العربي. إذًا سأقول له غدًا: لمياء. نعم.. لمياء. سأخرج من عزلتي. سأتزوج لمياء.

كانت صورة رانيا أمامي على الحائط إذ لا تزال صورها معلقة مكانها.

لا.. لا أريد أن أصل إلى تلك النتيجة! لا أريد أن أختار بين رانيا أو لمياء. رانيا اختارت طريقها. رانيا صديقة، أخت لي، ...

هل أكذب على نفسي؟ لا.. لا أكذب. هي الحقيقة. أليس هذا ما أشعر به الآن؟

فكرت طويلاً، وأعدت السؤال على نفسي: هل أصبحت رانيا أختًا لي؟

قلت لأسعد في اليوم التالي:

– لقد وقع اختياري على لمياء، فما رأيك؟

– سامح.. لا تسألني، فأنت صاحب القرار. إنها حياتك وأنت أدرى بها. أنا رأيي بشكل عام أن البنات رائعات، وأباهن أروع، وأمهن أكثر روعة. إنها عائلة تفتخر بمصاهرتها. أخي سامح.. ليس المهم فقط أن تحب الفتاة، فعليك أيضًا أن تبحث عن خال لأولادك؟

قلت له:

– أشعر أنك ثروة من الحكم، لكأنك فيلسوف لم يكتشف بعد؟

- المهم.. هل أنت جادّ فيما تقول؟

- نعم.

- فهل أحدد معه موعدًا للخطبة الرسمية؟

- نعم

- وهل ستحضر أمك ووالدك حسب الأصول؟

- لا مانع. لماذا لا تحدد الموعد بعد أسبوع؟ دعني أهيئ أهل البيت لذلك.

- حسنًا.. على بركة الله.

- وماذا عن سعاد؟

- ما زلت أفكر، فأنا أعرف غيرها. عليّ أن أدقق في خياراتي.

بعد أسبوع كان وعدنا مع الحاج صالح. كان والدي وإخوتي سعيدين لقراري، ليس لأنني قررت الزواج مرة ثانية، ولكن لأنني سأتزوج غير رانيا، وسأتخلص من حبها الذي أصبح كابوسًا فوق صدري، كأنه ظلي يتبعني أينما ذهبت ولا يختفي إلا عندما يسكن داخلي. يسيطر على عقلي. يزورني في المنام، وكلما هربت منه لقيته أمامي. نعم.. رانيا أختي وصديقتي، ولكن هذه الصداقة تحتاج إلى خطوة إلى الأمام تخلصني من ذلك الحب الجسدي الذي يسكن قلبي. أريد التخلص من عينيها، وجمالها. أريد التوقف عن التفكير بشفتيها وخدودها الوردية، وأريد التوقف عن جسمها

ورغبتي في امتلاكه، وفي احتضانه، وفي تطويقها بذراعي، وإطباق شفتي على شفتيها. أريد التخلص من سحر نهديها.

نعم.. أريدها صديقة، لذلك أريد أن أسمو بنظرتي إليها إلى نظرة روحية، لعل خفة دمها وبراءتها وطهارتها تحتل قلبي بدل ذلك. لذا علي التوقف عن التفكير بها للحظة لكي أستعيد توازني، وأخطط لمستقبلي، ولعلاقتي معها، بشكل أفضل.

بعد يومين اتصل بي فادي الذي كان قد علم بخبر نيتي بالزواج، ودعاني إلى "بيتي كافيه" على الروشة، كأنه يعلم أنني أحب السهر هناك خصوصًا عندما يكون حسان هاشم نجم الحفل.

فعلاً كان حسان هاشم يرحب بنا عبر المايكروفون عندما دخلنا. كنا ثلاثة، لا أدري لماذا دعا فادي رانيا؟ هل أراد كسر الفجوة بيننا، أم أنه يخطط لشيء آخر؟

شعر فادي أن زواجي سيتركه وحيدًا في مواجهة مشكلة رانيا، فلا هو قادر على إدارة الظهر لها، ولا هي قابلة أن تتزوج أحدًا، وعندما قررت الزواج خاف أن يظل يحمل المسؤولية طوال العمر، فصديقته تركته ورفضت الزواج منه إلا إذا قطع علاقته نهائيًّا برانيا، وعندما قال لها إنه لا يستطيع أن يعدها بذلك، أنهت علاقتها به.

بعد تفكير اجتمع فادي برانيا، وأقنعها أن فادي سيطير نهائيًّا من يدها، وعليها العودة إليه. عليها المحاولة من جديد، فالزواج سنة الحياة، وطبيعة

البشر.

وافقت على رأيه على أن يتكفل هو بإقناعي على الموافقة، فقد كانت في البيت دون عمل، وأمها وأخوها كل يوم يصرخان بها، ويحملانها مسؤولية تدهور الوضع، كأنها وافقت هربًا من كلامهما. في بيتها تشعر بالراحة، وسامح أروع الشباب، لولا تلك العقدة. كانت دائمًا تتساءل: لماذا على الرجل أن يفعل ذلك الشيء مع المرأة؟ لولا ذلك لما حصل ما حصل.

دعوة فادي لم تكن عفوية؛ كانت مخططة. ها هو حسان هاشم يرحب بنا كأنه حفظني، وحفظ صورة رانيا. كان يعتقد أننا متزوجان فقال مرحبًا:

– اسمحوا لي أن أرحب بضيوفنا الأعزاء، سامح وزوجته رانيا والأخ...

قلت له:

– فادي عبد الله.

فقال:

– فادي عبد الله. وهدية مني سأقدم له هذه الأغنية.

هو يعيدها من جديد. إنها أغنية محمد فؤاد "القلب الطيب" التي أهدتها لي قبل شهور.

يا إلهي.. لا يزال يتذكر الأغنية التي أهدتها لي.

وعندما انتهى تقدم منها، ورحب بنا، وسلم علينا. سألها:

– ماذا تريدين أن تهديه هذه المرة؟

صمتت، وبعد تفكير قالت:

– أغنية محمد فؤاد "لو عايز تفتكرني".

وعندما بدأها كانت فعلاً تغمض عينيها، وتهز رأسها مع الأغنية. كانت تغني مع حسان هاشم ونحن معها:

– "لو عايز تفتكرني

غمض عينيك دقيقة

وانت تشوف الحقيقة"

آه.. لماذا فتح هذه الجروح؟ ألم أقرر التخلص منها نهائيا؟ يا إلهي.. كان كل شيء يعود من جديد.

قال لي فادي:

– سامح.. أعرف أنك لا تزال تحبها، وأنا متأكد أنها تحبك. قبل أن تقرر الزواج وتقطع خط الرجعة معها، لماذا لا تحاولان مرة أخرى؟ هل استسلمت؟

لم أعرف ماذا أقول. صمتّ، فأنا لم أتوقع أن يقول لي ذلك.

فأكمل حديثه:

– سامح.. لا تظلم بنات الناس. أخاف إن تزوجت أن تعيش في قلبين،

فتعاني معك زوجتك الجديدة. أنتما لبعض، وأنا دعوتكما هنا كي أجدد بينكما البيعة.

– فادي.. أنت تعرف أنها طلبت الطلاق، وقد حاولت معها وفشلت، وكان قرارنا مشتركًا لما تراه هي فيه مصلحتها.

– مصلحتها أن تكون معك في بيتك. لن يفهمها أحد سواك، ولن يتحملها أحد سواك، ولن يحبها أحد أكثر منك، وهي لن ترى أطيب ولا أروع منك.

قال فادي لرانيا:

– رانيا.. أما زلت تحبينه؟

ابتسمت وقالت:

– ليسأل دقات قلبه وسيعرف الجواب؟

– يا رب.. لماذا دغدغة العواطف من جديد؟ ها أنذا أضعف، وأستسلم لابتسامتها.

قلت لها:

– مكانك في القلب لم يتغير، وبيتك جاهز، وصورك ما زالت كما هي. حتى أشياءك الصغيرة التي تركتها لم أغير مكانها.

فقال فادي:

– كأنك تعرف أنها ستعود. لا أريد لحبكما أن ينهار أو يستسلم. هذه

لحظة سعيدة تستحق أن ترقصا معًا.

مدت يدها، فرفعت يدي. وقفنا معًا، وتوجهنا إلى حلبة الرقص بينما انسل فادي، كأنه دس شيئًا لحسان هاشم وقال له أن يغني لكاظم الساهر بعد أغنيته الحالية:

"زيديني عشقًا زيديني

يا أحلى نوبات جنوني"

جلس فادي وحيدًا يدخن سيجارته ويشعر بالسعادة بأنه أعاد حبيبين إلى بعضهما، داعيًا الله أن يوفقهما هذه المرة، فهو بحاجة إلى أن يرانا في سعادة حقيقية لأن سعادته القادمة مرتبطة بمدى نجاح تجربتنا.

كانت رانيا في سعادة حقيقية، كأن الماضي لديها كان حلمًا. ما أروعها وهي ترقص وتغني دون خوف أو وجل! لم أحاول أن ألمسها كثيرًا حتى لا أثيرها. تركتها تتصرف بعفوية، فهذا أفضل الطرق إلى قلبها. كانت تنظر إلي وتبتسم وهي تتمايل مع كاظم الساهر. إنها تشجيني بجرعات حب جديدة، كأنه لا يكفي ما بي من شحنات سابقة. كيف يمكن لي أن أتركها بعد هذه الليلة؟

كانت سهرتنا رائعة، فقد حضر إلى الحفل المطرب الإماراتي محمد المازم، وغنى لنا أغنيته المشهورة "تكرم عينك". رقصنا عليها، وتصورنا جميعًا معه. أحببناه، فقد كان مطربًا لطيفًا، غير متكبر كبعض المطربين الآخرين الذي كانوا أحيانًا يحلّون ضيوفًا على "بيتي كافيه"، يبتسم للجميع،

ويسلم على الجمهور، ويتصور معهم باسمًا.

بعد منتصف الليل عدنا إلى بيوتنا. أوصلنا رانيا أولاً، وفي الطريق إلى بيت فادي قال لي:

– سامح.. أعرف أنه لا يزال أمامك بعض الوقت لتصبر عليها، لكني متأكد أنها ستجتازها بنجاح. من رآك ترقص معها الليلة عرف كم تحبها.

قلت له:

– أرجو ألا نكون قد تسرعنا لنعود إلى ما كنا به. كنت أحاول التخلص من عقدتها، فأعدتني أنت الليلة إلى الماضي من جديد. ترى ماذا سأقول للحاج صالح غدًا؟

– اعتذر له، وبالتأكيد سيتفهم السبب. سامح.. يكفيك مشكلتك. لا تعلق بمشاكل كل الناس.

(١٨)

حاولت النوم فلم أستطع. ما الذي جرى الليلة لم يكن في الحسبان. أن أعود إليها مرة أخرى لم يكن في تفكيري، فلماذا غيرت رأيي بهذه السرعة لماذا؟ ماذا أقول لوالديّ؟ للحاج صالح؟ لأسعد؟ لأختي؟ وإخواني؟

قال أسعد للحاج صالح إنني سأخطب لمياء؟ هل تعرف لمياء أنني سأخطبها؟ ماذا لو عرفت ثم علمت غدًا أنني غيرت رأيي؟ ستكون صدمة لها! ستحزن قبل أن تفرح. لعلها فرحت الآن، وتحلم بليلة الزفاف. لعلها تتصور نفسها بثوب العروس الأبيض. من يدري ربما تعد الآن نفسها لتلك الليلة.

لماذا يا سامح؟ لماذا تظلم بنات الناس؟ كسر الخواطر جريمة، والعبث في قلوب الناس جريمة أكبر! ألم تعرف ذلك من قبل؟! هل ستكرهني لمياء بعد؟ هل ستحقد علي؟ مسكينة تلك الفتاة الرائعة. كنت أحب أن نتبارز معًا غدًا بالشعر. كنت أحب أن نتناقش معًا حول أدب طه حسين، وحنا مينا، وشعر بشارة الخوري، وأدب جبران خليل جبران. حزين أنا لأنني سأكون سببًا في تعاسة قلب.

آه.. ليتك يا أسعد لا تكون قد قلت للحاج صالح أننا سنخطب ابنته لمياء، على الأقل سيكون الوضع أهون. كيف؟

إن لم يقل له عن لمياء فربما كل منهن تعتقد أنها صاحبة الحظ، والآن

سأزرع الحزن في قلب ثلاثة منهن.

ماذا عن أمي وأبي؟ أنا مقدم على مواجهة عاصفة شديدة، لا أعرف كيف سأتحملها. هكذا كلما اقتربت من رانيا أقف وحيدًا في المعركة لا يقف معي سوى فادي. كنت سأرضى بنصيبي وسأظل وحيدًا لو وقفت بجانبي. ماذا لو عدنا إلى المشاكل من جديد؟ ستكون كارثة؛ كارثة لا أقوى على تحملها.

في الصباح التقيت بأسعد، وشرحت له الخبر، قلت له محاولاً التخفيف من قراري:

– أسعد.. أنت صديقي العزيز ولن أخفي عليك أنني ما زلت أحب رانيا، وأخاف أن يؤثر حبي لها على علاقتي الزوجية، لذلك...

قال لي مقاطعًا:

– بعد زواجك من لمياء، ستنسى رانيا، ومشكلة رانيا.

قلت له:

– أسعد.. أنا قررت الرجوع إلى رانيا.

– ماذا؟ رانيا من جديد؟ كيف؟

شرحت له ما حصل في الليلة الماضية، فاحمر وجهه، وقال لي:

– تفعلها بعد أن وعدت الناس بخطبة لمياء لك؟ أتريد أن تسيء علاقتي مع الحاج صالح؟ الناس ترتبط بكلمة يا سامح.

- ولكن الزواج قسمة ونصيب!

- صحيح، ولكنك قررت بعد تفكير. بصراحة.. أنا غير مرتاح لما فعلته.

قطب حاجبيه وتغير لون وجهه. قال لي بغضب:

- دعني أرى ما يمكن عمله.

تركني وغادر غاضبًا. ناديته:

- أسعد.. أسعد..

لم يرد، ولم يتوقف. ركب سيارته وغادر المكان. اتصلت به فلم يرد على اتصالي كأنه قرر معاقبتي لما فعلت به. أسعد كان أعز صديق لي، عرفته منذ الطفولة.

توجهت إلى بيت والدي لأرى ردة فعله، وأعلمته بالخبر، فصرخ بي قائلاً:

- هل أنت مجنون؟

أما أمي فقالت:

- لا.. هذا كثير. يبدو أنها سحرتك. لا أعرف ما سر تعلقك بها.

فقال أبي وهو في قمة الغضب:

- إن تزوجتها مرة أخرى لن أدخل بيتك ولا أريد التحدث معك.

تركني مع أمي وخرج إلى الغرفة الأخرى.

أما أمي فقالت:

– لقد فضحتنا أمام الناس. يا خسارة تربيتي فيك. ماذا أقول لزوجة الحاج صالح؟ هؤلاء الناس من أحسن عائلات صيدا، والحاج صالح من أشرفها.

تركتني ولحقت بأبي، فخرجت من البيت لا أعرف ماذا أفعل.

كل أهلي اتصلوا وعاتبوني وقرروا عدم زيارتي إذا تزوجت رانيا مرة أخرى. فقط أخي كامل الذي لم يقاطعني، لكنه قال لي:

– يا سامح.. مثلك يكون رئيس وزراء، أو وزيرًا، فلماذا هذا التردد والتغير في المواقف؟ إن لم تتعلم كيف تحسم أمورك ستفشل في حياتك. لا تترك لامرأة أن تسيطر عليك بهذا الشكل. من تحبك أحبها، ومن تتركك دُسْ عليها. لا تجعل قلبك يتحكم بحياتك.

لعله صادق. لا أعرف. ليت الحب مثل القرارات الوزارية لسهل الأمر واتخذت القرار.

لم يبق لي سوى خيار واحد؛ التقدم إلى الأمام وحيدًا، فإن فشلت سأصبح مضغة في أفواه الآخرين، وإن نجحت سأعيد للعشاق مكانتهم بين الناس.

(١٩)

الاثنين، العاشر من أيلول ٢٠٠١. كنا أمام المحكمة الشرعية لعقد قران

جديد بمهر لم تستلمه لأنها لم تعد لهذا الغرض.

وقفنا أمام أحد القضاة في الغرفة التي تقع إلى يسار مكاتب القاضي الرئيس في الطابق الثاني. ذهبنا وحدنا، ولم نحضر معنا أحدًا، ولم نتغلب بإحضار الشهود، فالشهود في المحكمة كثيرون. وقعنا جميع الأوراق الضرورية، وكالعادة طلب مني القاضي أن أردد وراءه بأنني أتزوجها على سنة الله ورسوله حسب المهر المسمّى بيننا. وقالت هي حسب ما طلب منها أنها زوجت نفسها.

بارك لنا القاضي، وقال لنا:

- لا تعودا إلى الطلاق. لا أريد أن أراكما.

خرجنا فرحين، كأن حياتنا بدأت من جديد. لم تكن فرحتي شديدة كما المرة السابقة، بل كانت فاترة بعض الشيء، فالمشكلة التي أواجهها لم تعد في زواجها، ولكن في استمرار الزواج، وتقدمها خطوات لإنجاحه. لذلك فكرة عقد القران غابت عنها البهجة، فلن يتبعها شيء جديد. لا حفلة، ولا شهر عسل، وبدل النوم في غرفتي سأعود للنوم في غرفة الصالون أسهر وحدي، أتابع الأخبار، وأنتظر أن تحن علي وتقول لي:

- تعال.. لقد سمحت لك بالدخول.

نعم.. الدخول إلى غرفة النوم ليلاً لا يزال محرّمًا علي، ولا أحد يعرف ذلك. كل من يراني معها يحسدني لأني الوحيد الذي أتمتع بهذا الجمال.

كنت أتركها تتقرب مني وحدها. ألاطفها وأتودد إليها، وأقطف القبلات

خلسه، لعل ذلك يكسر حاجز الخوف المعشش لديها. لم أكن في قمة السعادة.

لكنني كنت راضيًا عن نفسي. في تلك الأيام كنت أعتقد أنني أضحي من أجل إنسانة أحببتها، والأهم من أجل خوفي عليها، لأنها تعرضت للاضطهاد، لعل ذلك كان أبرز ما يحركني، فأنا رجل كالأطفال يبكي عندما يسمع قصص الظلم. يبكي عندما يرى في التلفاز طفلاً يئن من الجوع ولا أستطيع أن أقدم له شيئًا. إنه العطف إذًا. الإشفاق عليها يقينًا لو لم تكن تلك حالتها لتغيرتُ نحوها، واتخذت قراري منذ زمن بعيد.

أحس بوقوفي معها انتصاري للمظلومين. أحس بتحدي الظلم. أحس أنني أمنع المجرمين من تحقيق انتصارهم. هذا الشعور لا يفهمه كل الناس، ولو شرحته لهم لسخروا مني. لا أحد يعرف ما في دواخلنا. أعرف أحد الأصدقاء عندما تزوج اكتشف أن زوجته غير عذراء، وعندما سألها ودقق في الموضع عرف أنها تعرضت لاعتداء من أخيها وهي صغيرة، وبدل أن يساعدها على الجريمة التي ارتكبت بحقها طلقها، ولم يترك أحدًا من معارفه وأهله إلا وحدثه عن ذلك، فانتحرت بعد شهر.

الرجال هم الذين يرتكبون معظم الجرائم، ولكنهم لا يعاقبون إلا النساء. يعاقبونهن على جرائم ارتكبها جنسهم. ليس في قلوبهم رحمة. يقينًا لو أراد الله أن يعاقب الناس كما يعاقب الناس بعضهم بعضًا ما دخل الجنة إلا أنبياء البشر أو بعضهم.

في الليل، عندما ذهبت إلى فراشها ودّعتني بقبلة. نظرت إلي وقالت:

- سامح.. لن يطول انتظارك.

ابتسمت وقلت لها:

- يكفي أن أرى كل يوم في عينيك كل ما أحتاج إليه.

تركتني وذهبت لتنام، ولكنها عادت بعد لحظات سألتني:

- هل نمت؟

قلت لها:

- لا يغفو لي جفن ما دمت قلقة.

ضحكت وقالت:

- هل تريد أن تشرب شايًا؟

- من يديك أشرب كل شيء.

أعجبتها كلماتي، فهي دائمًا تسكر عليها.

فقالت:

- سأحضر كوبين من الشاي وسأحليها بأصابعي.

- سيكون الشاي أحلى من العسل.

- متأكد؟ سأفعلها.

- افعليها. إن كانت رؤيتهما تزيده حلاوة، فكيف عندما تمر أصابعك

عليه.

سكتت، وغادرت تحضر الشاي.

عادت، وجلست بجانبي. قالت لي:

- هل أنت سعيد بزواجنا مرة أخرى؟

- رانيا.. سعيد بعودتك إلى بيتك. انظري لم يتغير شيء. لقد كنت أعرف أنك ستعودين.

- وكيف عرفت؟

- قلبي أخبرني أنك لن تكوني لأحد سواي.

قدمت لي الشاي. شعرت أنها تتقرب مني. نظرت إليها وقلت لها:

- رانيا.. ما شعورك أنت؟

- لا أعرف كيف أصفه لك. صحيح أنني لم أقدم لك ما تقدمه زوجة لزوجها بعد. أعرف أنك صابر لأنك تحبني. تضحيتك هذه تزيدني محبة لك. لا أعرف كيف سأعيش بدونك. يقيناً لو تركتني أنت وفادي بسببك لضعت في هذه الدنيا. أنا في عالم مليء بالذئاب، الكل يحاول نهشي. لا أشعر بالأمان مع أحد سواك ومع فادي، لأنني واثقة من أخوّة فادي ومن شعوره تجاهي.

قلت لها بعد أن ضربت كأسي بكأسها:

- بصحة زواجنا.

سهرنا طويلاً. يبدو أنها لم تنعس. لعلها تفكر بشيء. ربما تحاول إقناع نفسها بأن عليها التقدم نحوي.

وضعت الكأس على الطاولة وقالت:

- طار النعاس من عيني.

- ما الذي طيّره؟

- لا أعلم، كأنني لا أريد النوم.

وضعت يدي على شعرها وقلت لها:

- لماذا لا تتركين شعرك يطول حتى يخيم على كتفيك؟

- لا أحب الشعر الطويل؟

- لماذا؟

- لا تفتح جروحي يا سامح. دع الماضي وحيدًا.

- حتى للشعر ذكريات مؤلمة؟

تنهدت عميقًا وقالت:

- كرهت شعري منذ كنت طفلة، وعندما كبرت قررت حلقه ليكون قصيرًا قريبًا من شعر الأولاد.

شعرت بحزنها فقلت لها:

– حبيبتي.. آسف أنني فكرتك بأشياء تحزنك. لم أعرف ذلك. هل تذكرينه؟

ابتسامة صفراء كانت على شفاهها وقالت:

– ليتني أستطيع نسيانه، كأنه أمامي الآن، صورته لا تفارقني، إنها نقمة تطاردني كل ليلة.

– لماذا لا نبحث عنه في كل بيروت؟

– وأين سنجده؟ هل بقي هناك؟ لعله هرب مع الهاربين؟ وماذا سنفعل به؟ ما دام المجرمون الأكابر لم يحاسبوا فكيف سنحاسبه؟ من سيحاكمه؟

قلت لها بعد عن عدلت من جلستي:

– الشعب. أنا. نحن كلنا.

– هل تستطيع؟ وماذا عن العشرات، المئات غيره؟ من سيقتص منهم؟ من سيحاكمهم؟ من سيعاقبهم؟ وإذا عاقبتهم، من سيعيد للضحايا ابتساماتهم؟!

– نعم.. أستطيع حتى لو حاسبوني، حتى لو سجنوني. ليتني أعرفه، سأقتله بيدي حتى لو سجنت ألف سنة.

– لماذا يسجنوك؟ أليس جريمة أن يعاقب الأحرار عندما ينفذون عقاب العدالة بحق المجرمين؟ وإذا كنت مستعدًا لقتل مجرم واحد، فمن يقتص من البقية؟ من يقتص من قتلة لبنان؟ من يقتص من الذين حولوا الوطن إلى

طوائف وحصص قبلية؟

- كلنا.. كلنا.

- كلنا؟ إذا كنا كلنا أبرياء، فأين المجرمون، وأين الضحايا؟

- أقصد كل الشرفاء يجب أن يهبوا دفاعًا عن الوطن.

- المجرم كبير.

- ونحن أكبر.

- المجرم مزروع في داخلنا، في ذاتنا، في قصورنا، وعجزنا، وطمعنا، وأنانيتنا، وجشعنا.

- غلبتني بهذه.

سكتت، وبدأت دموعها تتساقط من عينيها.

قلت لها:

- احبسي الدمع، وكفي البكاء. إن لم نقتص منه فلا بد أن يقتص منه الله في آخرته. لا ندري لعله الآن فقد رجله أو يده أو أصيب بالسرطان، أو مات في حادث سيارة.

- لو مات ألف مرة فلن أغفر له.

- ولا أنا.

وضعت يدي على كتفيها وجذبتها نحوي. ألقت برأسها على صدري

وصمتت تستعيد الماضي بكل آلامه.

(٢٠)

لا أعرف كيف بدأت تسرد قصتها دون أن أسألها:

أخذها بسيارة جيب عسكرية، قال لها: «اغمضي عينيك». فأغمضتهما. لم تعد ترى شيئًا. كانت ماثلة أمامها صورة أبيها الذي سقط وهو يحتضنها. دافع عنها حتى الرمق الأخير. كانت تبكي بحرارة خائفة، لا تعرف أين يسوقها.

مرت فترة لم تعرف مدتها فقد غلبها النوم، وعندما أيقظها ركلها برجله، وقال لها صارخًا: "تعالي".

نزلت من السيارة، فأخذها من يدها إلى إحدى العمارات. لم تميز الشارع فلم تدخله من قبل. صعد إلى الطابق الثالث، وهناك دخل إلى إحدى الشقق. كان في الشقة امرأة عجوز هي أمه.

قال لها:

- جئتك بخادمة ستخدمك في غيابي، وإن غلبتك، سأقطع رأسها.

استدار إليها وقال:

- مسموع؟

قالت له:

- أمرك.

ولم تنبس بحرف غير ذلك.

كانت أمه امرأة شديدة. ألقت بحمل البيت عليها. لم تسألها من أين أتت كأنها غير مهتمة بالتفاصيل. المهم النتائج. وعندما كان يأتي الليل كانت تتركها تنام في المطبخ بعد أن تحذرها من فتح الثلاجة.

كان ابنها يأتي متأخرًا من الليل، وأحيانا لا يأتي، وقد كانت أمه تناديه: "ماما". كأنها لا تريدها أن تسمع اسمه. لكن في أحد الأيام سمعتها رانيا تناديه في غرفتها: "طوني".

طوني. إذًا هذا اسمه. لكن أي طوني؟ كم طوني في لبنان؟

جاء إلى رانيا في المطبخ وأيقظها، قال لها:

- أريد أن آكل، حضري الأكل.

وبعد أن شبع قال لها:

- لا تنامي هنا، تعالي.

وطلب منها أن تنام في غرفته.

وعندما أغلق الباب، بدأ يخلع ملابسه. كانت رانيا ترتعب خوفًا. نامت وألقت بالبطانية على رأسها. بعد لحظة، أطفأ النور. شعرت بالراحة. لم تعد تسمع صوتًا. فجأة شعرت بواحد يسحب عنها البطانية. كادت تصرخ. كان كل جسمها ينتفض. نظر إليها وقال: "إذا صرخت سأقتلك". ورفع أمام

عينيها السكين ووضعها على رقبتها لتحس بها. خافت. هزت رأسها. لم تتكلم. مد يده على شعرها وصار يحركه كما يحلو له.

فجأة قبلها في فمها. لم تعرف لماذا يفعل ذلك. استسلمت كجثة هامدة. كان يمارس سيادته بها، لم يكن يهمه ماذا تفعل ولا كيف ترتجف. فجأة بدأ يتحسس جسمها، وصار يخلع لها ملابسها. فجأه خلع لها سروالها الداخلي. كانت تبكي بصمت. وضع يده يتحسس كل شيء بها؛ نهديها، ورجليها، ثم وضع يده على المنطقة التي كانت أمها تقول لها: "لا تسمحي لأحد من الأولاد الاقتراب منها". لكنه رجل، لا تستطيع مقاومته، ولم تسمح له. إنه يمارس ما يريد دون أن يسألها. إنها الضحية.

فجأة عدل من وضعه. رأته عاريًا فوقها. شعرت بشيء في داخلها. صارت تئنّ من الألم. قالت بصوت منخفض كي لا يغضب: "آخ.. آي".

كان يخترق غشاء بكارتها، وكرامتها، وطفولتها، وإنسانيتها. أحست بألم، بالدموع تتساقط. "آه يا ربي.. ما الذي أذنبته؟ ما الذي فعلته ليغضبك؟ لماذا يا رب؟ ساعدني."

قال لها:

– لا تخافي. هذا الألم فقط في المرة الأولى، وبعد ذلك سوف تتعودين عليه. هكذا كان أبوك يفعل مع أمك، وإلا لم تولدي. في المرة القادمة ستشعرين بلذة.

وصار يتأوه وهو يمارس جريمته.

لذة؟! أية لذة؟ إنه ألم. إنه وجع يتزايد.

"ما الذي أدخله في؟" كانت تتساءل وترتعد خوفًا، ومع كل ألم كانت تناجي ربها: «ربي ارحمني. لو كان أبي حيًّا لما تركه يفعل بي هكذا. لماذا يا رب؟ لماذا تركتهم يقتلونه؟»

بعد أن انتهى وقف عاريًا أمامها. قال وقد شعر بالراحة:

- اذهبي إلى الحمام واغسلي الدم وما يخرج منك. لا تزعجي أمي النائمة، ولا تخبري أحدًا.

وبعد أن عادت تركها تنام، وذهب هو إلى الحمام ليغتسل. كأن الماء الذي سيغسل به جسمه سيغسل عاره وجريمته. كان مزهوًّا بفعلته. لقد قتل أحد أعدائه، وها هو يغتصب ابنة عدوه. لم يعلم أنه كان يغتصب الوطن نفسه، والإنسانية بأكملها. كان يغتصب نفسه، يغتصب كرامته، وشرفه، وإنسانيته! من غير الممكن لإنسان يرتكب مثل تلك الجريمة أن يكون حريصًا على الوطن. سيكون هدفًا سهلاً لأعداء الوطن كي يعبروا من خلاله إلى قلب الوطن ليدمروه. ماذا يبقى في الجسم إن استطاعوا الوصول إلى القلب؟!

في أحد المرات سمعت رانيا جارة المرأة التي تعمل في خدمتها تسألها:

- من أين لك هذه البنت؟

فقالت لها:

- أحضرها ابني من الحواجز.

فقالت لها:

- حرام عليك، أرجعوها إلى أهلها.

- ولكنهم يأسرون منا أيضًا.

- ليسامحنا الرب. هذه طفله. حرام.. حرام. أكيد أبوها وأمها يبكيان عليها.

- ولكن أبوها مات. قتلوه. حاول أن يهرب فقتلوه.

- مسكينة. قطّعت قلبي عليها، دخيلكم بحياة المسيح أعيديها إلى أهلها.

سكتت المرأة ولم تجب، ومنذ تلك الفترة حسنت من معاملتها معها، لكنها لم تكن تعلم بما فعله ابنها. وفي أحد المرات سمعتها تقول له:

- طوني.. لماذا لا تعيد البنت إلى أهلها؟

- ولكنها تخدمك.

- طوني.. لقد غيرت رأيي. إنها طفلة. لقد زارني الرب في المنام وقال لي: "كيف تسمحين لنفسك أن تحرمي طفلة من أهلها. لقد أغضبت أبانا الذي في السماء واهتز العرش".

بدأت المرأة تبكي أمام ابنها. لم تتوقع أن تطالبه بإعادتها إلى أهلها وهي التي كانت شديدة في معاملتها.

بعد نقاش طويل وعدها ابنها أن يعيدها عند أول تبادل للأسرى بين

الجانبين. بعد عدة أيام أخذها معه، وبعد فترة وجدت نفسها مع عدة أشخاص شباب ونساء ورجال كبار. استقبلوهم جميعًا بسرور، وسألوها عن اسمها، فقالت لهم بخوف:

- رانيا.

- من أين أنت يا رانيا؟

- من بيروت.

لم تتمّ حديثها، فقد ساقوها إلى منطقة أخرى، وسلموها إلى جيش آخر. كانت مرتعبة خائفة من كل المقاتلين أن يفعلوا بها ما فعله طوني. لكن عرفت فيما بعد أنها في الطرف الآخر لدى الجانب الأكثر أمانًا. لم تعرف أين أصبح أهلها، ولا أين هم الآن. سلموها إلى أحد المسؤولين الذي أخذها إلى بيته لتعيش مع عائلته حتى يتم العثور على أهلها أو يعرف مكانهم.

نظرت إليها بعد فترة لأراها تغمض عينيها.

قلت لها:

- رانيا، هل تسبحين في بحر ذكرياتك؟

لم ترد، فتركتها للحظة أخرى أحسست خلالها أنها نائمة:

- رانيا.. رانيا.

لم ترد. قبّلتها من جبينها. مسدت شعرها بيدي، وتساءلت:

- يا رب.. ساعدها على تجاوز محنتها.. يا رب.

فكرت أن أحملها إلى غرفتها، لكني غيرت رأيي فقد أسندت رأسها إلى وسادة بجانبي وانتقلت إلى الكنبة الأصغر. توجهت إلى غرفة النوم. أحضرت حرامًا وعدت به. غطيتها وتركتها نائمة. مَن يدري لعلها تحلم بليلة الزفاف.

بقيت أتابع الأخبار، ثم أطفأت التلفاز بعد فترة ونمت على الأرض.

كنت أفكر كيف نمنا معًا في غرفة واحدة لأول مرة في التاريخ. هل هي البداية؟ أرجو أن يكون ذلك.

لم أطفئ النور حتى لا تستيقظ مرتعبة. تركته مضاءً.

حاولت أن أستسلم للنوم. كنت قلقًا أفكر بالحالة التي أنا بها، وكيف أصبحت منبوذًا من بين الأصدقاء والأقارب وحتى من أصدقائها. كلهم يعتقدون أنني متزوج من عاهرة، خائنة، فتاة لعوب، لا هم لها سوى معاشرة الرجال. لا أحد يعرف الحقيقة، وحتى لو عرفوها ماذا سيفعلون؟ هل سيكونون متضامنين معها؟ أم سيزيد حقدهم علي؟ من منا على خطأ: أنا أم هم؟

الأفكار دائمًا تهاجمني من كل صوب. لا تتركني أرتاح. المشكلة أنها تهاجمني بالليل لتمنع عني النوم، كأنها تقصدني. لماذا الآن؟ لماذا لا تأتيني بالنهار عندما أكون مستعدًا لاستقبالها ومحاورتها؟ لماذا تختار الوقت الذي أكون فيه ضعيفًا وخائر القوى؟ يا لهذه الأفكار السوداء. إنها كالأعداء

الحقيقيين من البشر الذين لا يهاجمونك إلا من الحلقة الأضعف. يبحثون عن نقطة ضعفك ليهاجمونك منها ليخترقوا كل دفاعاتك. ليتني أستطيع الهروب منها. ليتني أستطيع التوقف عن التفكير بها. آه.. لست أنا الذي أفكر بها، إنها هي التي تهاجمني رغمًا عني. تهاجمني دون أن أسمح لها، وهل يريد عدوك إذنًا منك ليهاجمك؟ كأنني وإياها في الخندق نفسه. كل له مشاكله النفسية. كل له نقاط ضعف يخترقه الآخرون منها.

كدت أغفو، وما أن أغمضت عيني استعدادًا للنوم، استيقظتْ من نومها. تظاهرت بالنوم لأعطيها الشعور بالأمان. نظرت حولها فرأتني نائمًا على الأرض. حملت الحرام لتتوجه به إلى غرفة النوم. تركتني وذهبت إلى غرفة نومها.

وذهب كل منا في نوم عميق.

(٢١)

تكررت سهراتنا معًا في البيت، وصارت رانيا عندما تنام تترك باب غرفة النوم مفتوحًا، فاستبشرت خيرًا، واعتقدت أن الأمور تحسنت، لكنها بعد شهر جاءتني في الصباح وقالت لي أريد أن أذهب إلى المستشفى.

– مستشفى؟ ما بك؟

- أنا مريضة. أريد أن أتعالج.

- تتعالجين؟

- نعم.. أحتاج إلى علاج نفسي.

استغربت حديثها وقلت لها:

- ولكنك تتقدمين إلى الأمام بخطى ثابتة.

- لا يوجد تقدم. أرجوك خذني أو سأذهب وحدي.

- إلى أي مستشفى.

- إلى مستشفى الأمراض النفسية في بيروت. لا تخبر فادي.

حملتها بسيارتي وتوجهنا إلى هناك.

استقبلتنا ممرضة، وطلبت منا الانتظار. بعد فترة جاءت ممرضة أخرى وسألتنا عدة أسئلة، ثم حولتنا إلى دكتورة أخصائية، وعندما بدأت أسئلتها طلبت مني رانيا أن تكون وحدها مع الدكتورة، فخرجت وتركتها تشرح لها بحرية. لعلها تريد التحدث عن زوجها الذي هو صورة أمام الناس.

بعد ساعة أخبروني أنها ستنام عندهم، ووقعت على الأوراق، ودفعت الرسوم باعتباري زوجها، وغادرت المستشفى بعد أن ودعتها ودعوتها للصبر والاستماع إلى إرشادات الطبيب.

في المساء سألني فادي:

– سامح.. لماذا لم تخبرني أنك نقلتها إلى المستشفى؟

يبدو أنها اتصلت به على الرغم من أنها طلبت منى ألا أخبر أحدًا. قلت له:

– كنت مشغولاً طوال اليوم.

كنت في الحقيقة لا أريد أن أخبره على الفور، بل أريد أن أريحه من رانيا ومشاكلها. أريد أن أشعر أنها زوجتي، وأنني المسؤول الوحيد عنها، لكنه قال لي:

– سامح.. أريد أن أراك على السريع. تعال زرني.

ذهبت إلى زيارته متوقعًا أنه سيلومني لما فعلته، لكنه فاجأني بقوله:

– سامح.. رانيا قامت بإساءات كثيرة. لقد قالت لهم عندما سألوها في المستشفى عنك إنها لا تحبك، وإنها تزوجتك بالقوة عن طريق أهلها، وإنها تحب شخصًا آخر.

لم أصدق ما سمعت. كلامه نزل علي نزول الصاعقة.

– ماذا تقول؟ هي قالت ذلك؟

– نعم. سامح.. وجودها في المستشفى غير ضروري. صدقني يجب إخراجها.

– ولكن الدكتورة قالت إنها تحتاج إلى... ثم كيف عرفت أنها قالت ذلك؟

- هي التي قالت لي.

أصبت بارتباك. لم أعرف على أثره ماذا سأفعل.

اتصلت بها في المستشفى فنادوها لي (لا يسمح باستخدام الهاتف النقال)، وعندما تحدثت معها، سألتها:

- كيف أنت الآن؟

- أنا بصحة جيدة.

- هل تريدين مغادرة المستشفى؟

- نعم.. الوضع هنا صعب، والممرضات سيئات جدًّا.

- ما الذي سمعته من فادي؟

- قلت لهم ذلك حتى أجد وسيلة لأنام في المستشفى وأخضع للعلاج.

لم أرد. قلت لها:

- سأتصل بالمستشفى ليسمحوا لك بالخروج.

اتصلت بإدارة المستشفى، فحولوني إلى الطبيب المشرف على علاجها. قال لي:

- إنها تحت إشرافي لفترة أسبوعين، فإذا خرجت الآن، لا أستطيع متابعة العلاج، لذلك لا تعد لي إذا خرجت.

قلت له:

- موافق.

وطلبت منه إصدار أمر طبي للمستشفى للسماح لها بالمغادرة.

توجهت مع فادي ليلاً، كانت الساعة التاسعة مساءً، لاصطحابها إلى البيت. وقعت على الأوراق باستلامها كأنها ولد صغير يعود إلى أمه. قالوا لي:

- بدون حضورك الشخصي، لن نسمح لها بالمغادرة.

ثم سحبتني الممرضة إلى زاوية وحدي وهمست في أذني:

- احترس منها، تقول إنها تزوجتك بالقوة وإنها لا تحبك.

هززت رأسي، وشكرت الممرضة على حرصها.

عدنا إلى البيت. في الطريق هنأتها بالسلامة، وحمدنا الله أنها عادت سالمة. كان فادي على غير عادته. قال لها:

- ما الذي تفعلينه يا رانيا؟ لماذا في كل مرة تسيئين إلى هذا الرجل الذي أحبك وقدم لك كل شيء. لماذا تطعنينه من الخلف؟

لم ترد، كأنها تبحث عن إجابة مناسبة، فقال لها:

- طبعا لم تردي، لأنك تعودت دائمًا أن يسامحك. لو كنت مكانه لضربتك الآن.

غضبت فقالت له:

- لا تتدخل بيني وبين زوجي.

فصاح غاضبًا:

- ماذا؟ زوجك؟ ما دام زوجك فلماذا تسيئين إليه؟

- مجنونة.. مجنونة، ألم أقل لكم أنا مجنونة، لا أصلح أن أكون زوجة، أنا لا أنفع للزواج.

- فلماذا عدت له يا حيوانة؟ ألم تنفصلا بسلام؟ ألم توافقي على العودة إليه؟ ألم تذهبي معه إلى المحكمة بنفسك وتوافقين على الزواج منه؟! لماذا طلبت منه العودة؟ لماذا وعدته بالتغير؟ وهل كتب عليه أن يتزوجك على الهواء؟ هل تعتقدين نفسك بريجيت باردو؟

هدأت من غضبه وقلت له:

- لا تنفعل يا فادي. هدئ من روعك. هل تعرف ماذا قالت لي الممرضة عندما انفردت بي؟

- طبعًا أعرف. قالت لك إن رانيا قالت لها إنها تزوجتك بالقوة...

- كأنك سمعت الكلام؟

- لا والله لكن هذا ما قالته هي نفسها بأنها أخبرت الممرضات به.

- وهل أستحق كل ذلك؟

- سامح.. بصراحة لقد ضقت ذرعًا برانيا. لم أعد أتحمل تصرفاتها أبدًا.

الآن سأترك لك حرية التصرف.

استدار إلى الخلف حيث تجلس وقال لها:

– اسمعي.. لا تتصلي بي بعد اليوم. هذا زوجك اتصلي به، وإن كان لا يعجبك فدقّي رأسك بالحائط. هل أنت الوحيدة التي تعرضت لمشاكل؟

بدأت تبكي كعادتها. شعرت هذه المرة أن بكاءها كان مصطنعًا. قالت له:

– ما أتصرفه ليس بيدي. سامحاني. أنا لا أعرف ماذا أفعل. أعدكما أن أتغير.

ضحك فادي ساخرًا، وما أن وصلنا صيدا قال لي فادي:

– سامح.. أوصلني إلى البيت.

وهناك ودّعنا، وعندما خرج من السيارة، حمل هاتفه النقال، وقال لها: "انظري"، وضربه بالأرض فتحطم، ثم صرخ بها:

– لا تتصلي بي. لقد كسرت الهاتف حتى لا أسمع صوتك.

تركناه وغادرنا المكان.

قالت لي في البيت:

– لماذا لا تذهب إلى فادي وتصالحه.

قلت لها: دعيه سيهدأ لوحده.

لكنها أصرت على رأيها، وأنا ركبت رأسي. كنت أحب أن تقطع علاقتها

معه لعلها تغير من وضعها. إلا أنها زعلت وانزوت لا تحدثني. نسيت كل جريمتها، ولم يعد يهمها إلا فادي. في اليوم التالي سألتني:

- سامح.. ألم تزر فادي؟

- لا.

- لماذا؟ أليس أخاك؟

كانت تريد إثارتي. لكنني لم أغضب، ولم أنفعل. تصرفت بشكل عادي، فقد كنت أعرف هدفها، وعندما لم تنفع كل حيلة معي قالت لي:

- أريد السيارة.

- لماذا؟

- سأذهب لشراء بعض الأغراض.

لم أمانع على الرغم من أنني أعرف إلى أين ستذهب.

تركتها تذهب إلى حيث شاءت، فبعد ما أسرت إلي الممرضة بأنها لا تحبني لم يعد يثيرني شيء.

كانت صدمة غير متوقعة.

رانيا تقول للممرضات إنها لا تحبني، وعندما تكون معي تقول إنني أفضل شخص عرفته!

سلوك غريب لم أعد أفهمه. تجلس معي وتحدثني بمنطق وتتصرف مع

الآخرين بمنطق آخر. كنت سأتفهم لو أن تضحياتي لأجلها تحظى بالاحترام والتقدير، لا بالطعن والاستخفاف؟ هل هي مريضة حقًّا؟ وماذا سأفعل عندما يمتنع المريض عن تعاطي الدواء والالتزام بتعليمات الطبيب؟ كيف سيخفف من مرضه؟

كنت أشعر بقيمة تضحيتي تجاهها لو أنها تقدر ذلك، لكن حديثها للممرضات جعلني أصاب بالإحباط. في المرة الأولى ادعت أنها تزوجتني بتحريض من أهلها، لكنها في الثانية لماذا وافقت؟

"لا أحبه.. أحب شابًّا آخر! أحب فادي".

لا تحبني، وتحب فادي.

صعقة كهربائية أصابتني. أتذكر كل ما قاله أصدقائي وأهلي. عدت أتذكر ريما، وسمر، ونسرين، وكل ما حدثتني به.

الأوراق تختلط من جديد، ولم أعد أميز الأسود من الأبيض. عندما تتشابه الألوان لا يعود مهمًّا أي منها سنختار.

فجأة رن جرس الهاتف:

- ألو.

- سامح.. دخيلك.. تعال خذ زوجتك من عندي حتى لا ِأقتلها الآن. خذها ولا تتصلا بي. اتركاني بحالي دخيلكما. أنا تعبت منها ومن قصصها. هذه مجنونة لا أدري ربما كل ما حكته لنا كذب في كذب.

– فادي هدئ من روعك. سأحاول الحضور بسيارة تاكسي.

أغلقت الخط واتصلت بها فلم ترد علي. توجهت إلى الشارع، وبقيت أمشي حتى مرت سيارة تاكسي، فطلبت من السائق أن يوصلني إلى معرض والد فادي، وهناك كانت تجلس في المكتب والغضب بائن على وجهها. كان جرح على جبينها، سألتها:

– ماذا حصل؟ ألم تذهبي لتشتري الأغراض؟

لم ترد علي.

فقال لي:

– لقد تعاركنا. حاولت أن تضربني فضربتها. دخيلك يا سامح.. أبوس يديك خذها واتركاني.

كان منفعلاً، وكان علي أن أتقمص الهدوء. كان علي أن أضع دمي في ثلاجة حتى أعالج الموقف.

قلت لها:

– أعطني مفتاح السيارة.

فرمته لي على الأرض.

تناولته وقلت لها:

– تفضلي إلى البيت.

قالت لي:

- لا أريد الخروج من هنا.

- وماذا تريدين منه؟

- لا شيء. أريد أن أصالحه.

فصرخ بها:

- يا حيوانة.. لا أريدك أن أصالحك. امرأة تسيء إلى زوجها لا تلزمني ولا تشرفني. اخرجي من هنا.

الحمد لله أن المكتب كان لا يوجد فيه عمال، وكان فادي وحيدًا.

كان بإمكاني سحبها بالقوة، فلا يمنعني أحد، فهي زوجتي والقانون يحميني. لكن تماسكت أعصابي مرة أخرى. مسكت يدها وسحبتها قائلاً:

- تعالي الآن واتركيه يستريح.

سحبت يدها وقالت.

- اتركني. اذهب لوحدك. سأحضر فيما بعد.

- رانيا.. دعي فادي لوحده ولا تزيدي غضبه. لقد صبرت كثيرًا عليك.

- نعم.. نعم؟ صبرت؟ على ماذا صبرت؟ إذا كان لا يعجبك طلقني.

هكذا قالتها ببرود أعصاب. غضب فادي أكثر مني فقال لها:

- اخرسي يا كلبة، احترمي زوجك، وتعاملي معه باحترام.

فقالت له:

- اخرس أنت.

خرج عن طوره، فهجم عليها يضربها شمالاً ويمينًا، وأنا زوجها لم أعرف لثوان ماذا أفعل! هل أضربها مثله فقد هب ضدها تضامنا معي، أم أقف ضده فهو يضرب زوجتي بحضرتي؟! لكن أية زوجة تلك التي ترفض طلبات زوجها، وتصر أن تبقى في مكتب شخص غريب عنها، حتى لو كان في منزلة أخيها؟

مسكته بيدي، وحلت بينهما، لكنها حاولت ضربه عندما مسكته كأنها نسر يهاجم فريسته. يا إلهي.. من أين لها هذه القوة وهذا الإصرار على المواجهة؟!

قلت له بعد أن هدأ قليلاً حيث أصابها بوجهها:

- اهدأ، وسأسحبها إلى البيت بالقوة.

هجمت عليها وسحبتها من يديها رغمًا عنها، كأنني أجر عربة. أدخلتها إلى السيارة، وتحركت إلى البيت. قلت لها:

- إذا عدت إليه سأضربك بنفسي. تعرفين غضبي. لن أرحمك.

سكتت ولم تنطق بكلمة، وعندما وقفت أمام إشارة حمراء فتحت الباب وهربت. حاولت اللحاق بها، لكنها اختفت في الشوارع والأزقة الخلفية.

عدت إلى فادي وحدي لأهدئ من غضبه.

حدثته بما حصل وقلت له:

– إن حضرت اتصل بي، لكن أرجوك اهدأ. أنت أدرى بها.

قال لي بعد أن هدأت أعصابه قليلاً:

– سامح.. أرجوك اقبل اعتذاري. أنا لا أقصد أن أجرح مشاعرك، لكني متألم لكل تضحياتك لها. أعتذر أيضًا لأنني أقنعتك أن تعود إليها. لم أكن أعلم أنها ستظل على حالها. لقد حرمتك من زوجة كان يمكن أن تسعدك وتفهمك. أنا أعتذر. أنا المسؤول.

قلت له:

– دعنا الآن من الاعتذارات، وتعال نذهب إلى مكان نستريح فيه. هذه الليلة يجب أن نسهر ونطرب.

ضحك وقال لي:

– الليلة أدعوك إلى بيروت. أعرف أنك تحب "بيتي كافيه". سنذهب إلى هناك، لكن سنبقى في الطابق العلوي. أريد أن أدخن الأرجيلة على صوت أمواج البحر.

– حسنًا.. سأتصل الآن بأحد الموظفين ليأتي ويحل مكاني. اذهب وغيّر ملابسك، وسنلتقي في الثامنة مساء.

هربت رانيا من السيارة. اختفت في أزقة صيدا وشوارعها، وعندما

تأكدت أن لا أحد يلاحقها عادت تسير بخطى بطيئة باتجاه البحر. لم تكن تعرف لماذا تسير إلى هناك؟ لماذا لا تعود إلى البيت؟ هل سيمنعها سامح؟

البحر ملاذها في تلك اللحظة. ما أجمل أن يستحم الإنسان بماء البحر فيغسل كل الأوساخ العالقة على جسمه.

أعياها التعب وهي تمشي، لكنها وصلت أخيرًا إلى البحر. اقتربت من الشاطئ في مكان بعيد عن الناس، وجلست تتأمل الأمواج المتلاطمة. جلست سارحة في الأفق بعد أن جفت دموعها.

كان نسيم البحر يداعبها ويحرك شعرها. جلست هناك واستلقت بعد فترة لساعات لا تعرف عددها. بدأت تدندن، تبحث عن أغنية تحكي قصتها لتغنيها. انتقلت من أغنية إلى أخرى حتى استقرت إلى أغنية عبد الحليم حافظ:

"إن كنت حبيبي

ساعدني كي أرحل عنك

أو كنت طبيبي

ساعدني كي أشفى منك

لو أني أعرف...

لو أني أعرف خاتمتي

ما كنت بدأت."

فجأة انتبه لها أحد الشباب الذي كان يمر من المنطقة.

أوقف سيارته وتوجه نحوها، وبدون استئذان جلس بجانبها، وعرف على نفسه:

- محسوبك أحمد. ممكن نتعرف.

قالت له:

- انصرف من هنا، وابعد عني.

فقال لها:

- لماذا، ألست قد المقام؟

- قلت لك ابعد عني.

فقال لها:

- وهل الشاطئ ملك أبيك؟ أنا هنا في مكان عام.

ثم ابتسم لها قائلاً:

- تعجبني قصة شعرك. هل تبحثين عن صديق؟

لم تتحمل كلامه فضربته على وجهه وصرخت به:

- يا حيوان.. يا كلب.. ابعد من هنا.

وقفت مبتعدة عنه.

فوجئ أحمد بما فعلته، فوضع يده على خده للحظة، ثم لحق بها.

- بسيطة، ضرب الحبيب مثل أكل الزبيب. إلى أين تذهبين؟ تعالي سأوصلك بسيارتي. أنا تحت أمرك. أحسن لك من الذي تنتظرينه.

أسرعت الخطى، فأسرع وراءها، وعندما اقتربت من أحد المارة قال لها متظاهرًا أنه يعرفها.

- يا عبلة.. كفاك هروبا مني. أمي بانتظارك بالبيت.

فقالت له:

- ابتعد عني يا لئيم.

قال له أحد المشاة:

- دعك منها يا أخي. عيب عليك.

فقال له أحمد:

- هذه أختي أريد أن أوصلها إلى البيت.

فاستدارت إليه وقالت له:

- أنا أختك؟ أنا لا أعرفك.

- ولو! تخليت عنا في ساعة غضب؟ تعالي معي، وسنحل كل شيء.

تابعت السير وتابع أحمد السير وراءها.

فجأة قررت الاتصال بأحد ليساعدها في ورطتها. هل تتصل بسامح؟ ليس لها سواه الآن. ففادي لا تعرف رقمه الجديد. اتصلت بسامح. كان سامح وفادي في طريقهما إلى بيروت، وقد وصلا منطقة الأوزاعي:

- ألو سامح.

- أهلا رانيا، أين أنت؟

- أنا بورطة أرجوك تعال خذني.

- ورطة؟ ماذا حصل؟

- أحد الشباب يعاكسني ويلاحقني على كورنيش صيدا.

- وماذا تفعلين هناك الآن؟

- هل ستحضر أم لا؟

- نحن في الطريق إليك.

قال سامح لفادي عما حصل، وعادا إلى صيدا بسرعة جنونية.

وقفت وقالت لأحمد:

- ما الذي تريده؟

فقال لها:

- أن نسهر معًا. معي سيارة جديدة.

- أين سيارتك؟

أشار إليها بيده. فقالت له:

- هل ستذهب إلى بيروت؟

- إلى أي مكان في لبنان.

كانت تطيل الحديث معه حتى يصل سامح، وعندما رأت سيارته من بعيد أشارت إليه بيدها. أوقف سيارته قريبًا منها. خرج منها بسرعة مع فادي، فقالت له:

- هذا هو.

وأشارت نحو أحمد.

عرف أحمد أنه وقع في كمين فهرب. لحقه فادي وألقى القبض عليه وهجم عليه سامح وفادي حتى لم يعد يستطيع الوقوف على قدميه. أخذا رانيا وغادرا المكان.

قال لها سامح:

- ما الذي كنت تفعلينه هنا؟

- كنت أجلس على الشاطئ.

- تراجعين حساباتك فيما فعلت؟

- أعرف أنني مذنبة. سامحاني.

وعادت إلى نغمة البكاء من جديد. دموعها تسيل على خديها بحرارة.

– أنا أتعبتكما معي. أعرف أنني لم أعد مريحة. ليتني أموت وأتخلص من الحياة. آه سامحاني.

قال لها فادي:

– رانيا.. في كل مرة تفعلين الشيء نفسه وتعودين تعتذرين. بعض الأخطاء يصعب إصلاحها. كيف تقبلين على نفسك أن تقولي للممرضات إنك لا تحبين سامح وإنك تزوجته بالقوة، وإنك تحبين فادي؟ هل تريدين أن تزرعي الفتنة بيننا؟ لماذا ذلك؟ إن كنت لا تحبينه فلماذا وافقت على العودة إليه؟ وإن كنت تحبينني فأنا قلت لك ألف مرة أنت كأخت لي. أنا لا أحبك كامرأة. لم أشعر يومًا أنك فتاة أحلامي.

قاطعته:

– فادي.. أنا لم أقصد شيئًا مما تفكر به. أنت تعلم أنني لم أقصد كل ما قلته، وأن مشاعري ليست ما أبحته للممرضات. لكني (صمتت...) ثم تابعت: ارتكبت حماقة جديدة من حماقاتي التي تعودتم عليها.

وصلنا البيت، وقلنا لها:

– حسنا اصعدي الآن إلى البيت، فلدينا مشوار أنا وفادي.

– ألن تأخذاني معكما؟

– ليس الآن. فادي وأنا بحاجة إلى راحة أعصاب، وسنتركك ترتاحين،

فأنت بحاجة إلى الخلود إلى النوم.

تركناها تصعد إلى الشقة، وغادرنا المكان متجهين إلى بيروت.

في الطريق قال لي فادي:

– هذه الفتاة ستعيش حياتها راهبة. أعتقد أنها لن تتغير. لا أدري ربما كانت صادقة منذ البداية عندما قالت لك إنها لا تريد الزواج.

قلت له:

– أعرف أنها صادقة يا فادي، لكن كنت أحاول أن أخلصها من عقدتها. لكنها لم تتقدم خطوة واحدة إلى الأمام. لم تحاول. هل تعتقد أنها فعلاً كانت تتمنى لو كنت أنت زوجها؟

نظر إلي مستغربًا:

– سامح.. ما الذي تقوله؟ هل تريدنا العودة إلى الوراء؟ ألا تذكر عندما قلت لها سأتزوجك ماذا قالت؟ ابعد ذلك عن تفكيرك نهائيًّا. إنها تتصرف تصرف مجانين لا أكثر. تلك الحادثة على ما يبدو تحولت إلى عقدة دائمة لديها لا مجال للتخلص منها. يبدو أن الحل أن نتحول كلانا إلى إخوة لها. أعرف أنني أهذي الآن، لكن يا سامح، تعبك معها يتعبني مثلك، ها أنت ترى.

– لقد أتعبني حبها يا فادي. تحملت الكثير ولم أصل إلى نتيجة. لم تتحسنز لم تتغير. حتى الحب الروحي يحتاج إلى تضحيات مقابلة. لا أعرف

ماذا أقول لك. دعنا الآن نستريح من ذكرها ولنهيئ أنفسنا لسهرة تريح أعصابنا.

وصلنا "بيتي كافيه". قال لي:

- أعرف أنك تحب السهر هنا، فتعال ننزل فيه، عرفت أن الليلة سيكون حسان هاشم وعماد حاوي، وسيزور المكان المطرب فضل شاكر.

- إلى "بيتي كافيه" إذًا.

دخلنا المكان في الطابق الأعلى. استقبلنا النادل وأجلسنا نواجه البحر بأمواجه الليلية التي تحمل أسرار النهار. لا تبيحها، ولا تسمع لأحد أن يفك طلاسمها.

كان القمر بدرًا، والجو دافئًا. أول شيء طلبته أرجيلة. قلت لفادي:

- أريد أن أدخن الأرجيلة فهي تريح أعصابي. فقال لي:

- اجعلها اثنين، لكن لا تنس أنا أحب العسل والعنب وليس التفاح مثلك.

ما أروع البحر حينما يكون القمر بدرًا والدخان يتصاعد من فمنا كأنه يحمل دعواتنا إلى السماء كصلاة سكان أمريكا الأصليين الذين نطلق عليهم الهنود الحمر.

قال لي فادي:

- أنا جوعان وأريد أن آكل.

- وأنا مثلك. سنأكل كما لم نأكل من قبل. لنجعلها سهرة غريبة.

ناديت النادل، وطلبت منه تشكيلة من السلطات؛ واحد متبل، واحد سلطة خضراء، واحد سلطة تبولة، واحد صحن حمص، ولحوم مشكلة لشخصين.

كان المطعم يعج بالحضور كأننا على موعد مع كل هؤلاء الناس. إنها فرصة ليستعيد اللبنانيون فرحهم بعدما زرعت إسرائيل وحروب الإخوة والجيران الحزن في كل بيت.

حينما تأتي ساعة الفرح فلا تضيعها، لأنك قد تخسرها لزمن طويل.

أكلنا بنهم، وشربنا نخب صداقتنا المتواصلة، قلت له:

- بصحة لبنان.

فقال لي:

- بصحة لبنان.

شربنا معًا، وأكلنا معًا، ويبدو أننا تجلينا معًا.

قال لي:

- تعال نذهب إلى القاعة في الأسفل فقد بدأت السهرة.

انتقلنا إلى القاعة السفلى. كانت تعج بالعائلات والعشاق. جلسنا قريبًا من الفرقة.

انتبه لنا حسان هاشم الذي كان جالسًا ينتظر دوره للغناء، فجاء وسلم

علينا. سألنا:

- أين المدام.

قلت له:

- مشغولة اليوم فجئنا نسهر وحدنا.

فرحب بنا وقال:

- هل تحب أن تسمع شيئًا؟

قلت له:

يا ليتك تسمعنا شيئًا لأم كلثوم.

- مثل ماذا؟

- "لسه فاكر".

- "لسه فاكر كان زمان". سأغنيها لعيونكما.

كانت بالقرب طاولة عليها عدة فتيات وحدهن، وكن يتسابقن كلما بدأت الموسيقى للرقص.

قال لي فادي:

- فرصة للتعرف إليهن.

نظر إلى إحداهن، وابتسم لها، فردت عليه بابتسامة مماثلة. كان يعرف أن للمطعم قوانينه التي تلزم الجميع احترام الخصوصيات وعدم التدخل

بالجالسين، فانتظر أول لحظة مناسبة، وقال للنادل المسؤول عن الشيشة وكان مصريًّا يلبس طربوشًا يسميه العاملون بـــ"كولومبو". كان يخدمنا خدمة خاصة لأننا كنا لا ننساه آخر السهرة. قال له فادي: أعط هذا الكرت لتلك الفتاة الجالسة هناك دون أن ينتبه أحد. كان الكرت عليه اسمه، واسم معرض السيارات الخاص بوالده، ورقم هاتفه.

أخذت الفتاة الكرت. نظرت له ووضعته في حقيبتها.

قلت له:

- يبدو إن الصنارة قد شبكت

فقال لي:

- لماذا لا تبحث لك عن واحدة.

فقلت له:

- ألا تكفي رانيا.

فقال لي:

- رانيا؟ وهل تعتبر رانيا زوجة؟ أنت لا تستطيع أن تقبلها.

- وماذا سيقول حسان هاشم لو رآني معها؟

- سيقول إنك رجل.

- لا.. أنا سأبقى متفرجًا.

- طبعًا ستبقى متفرجًا، لأنك لا زلت تحت تأثيرها.

بعد لحظة حملت حقيبتها واتجهت باتجاه الحمام.

وبعد دقائق رن جرس هاتف فادي. نظر فادي إلى الرقم على شاشة هاتفه ثم قال:

- رقم هاتف غريب.

- ألو.

- أهلاً.. كيفك فادي.

- من المتكلم؟

- أنسيت؟ أنا جوليا.

- جوليا؟

صار يتذكر مَن جوليا. لم يتوقع أن تكون نفسها قد اتصلت به بتلك السرعة.

قالت له:

- ولو نسيت. أنا التي أرسلت لها الكرت منذ لحظات.

ضرب جبينه بيده ثم قال:

- لم أتوقع أن تتصلي بي وأنت تجلسين بجانبي. متأسف. كيفك؟

وقف وابتعد قليلاً عن ضجة الموسيقى ليسمع صوتها بشكل أوضح.

قالت له:

– بعد قليل سأخرج للرقص فتعال نرقص معًا، وسأتصل بك غدًا فأنا الآن مع مجموعة من الصديقات.

– تأمري يا جوليا. أنت أجملهن.

ابتسمت وقد أسعدها كلامه، وقالت له:

– وأنت لطيف.

قال لها مودعًا:

– أحبك.

وطبع على الهاتف قبلة.

عاد فادي ليخبرني ماذا حصل معه، ثم صعد إلى وسط القاعة ليرقص مع الراقصين، ثم تدريجيًّا يصبح أمامها وجها لوجه. كانت تتلوى أمامه كأنها ملكة للرقص. أسرته بجمالها ورقصها على صوت الموسيقى وصوت عماد حاوي وهو يغني.

لم يكن أحد يهتم بما يغني. كل ما يهمهم صوت الموسيقى وحركة الأرجل والأجساد. كان يتمنى لو أنه يمتلك ذلك الجسد النحيل أمامه. كان يتأملها بشهوة، فقد كان صدرها بارزًا، وكلما تحركت تحرك معها، حالمًا بلحظة تتعرى أمامه ليبلل ريقه العطشان، كأنه لم يشرب من قبل.

كان سامح يراقب فادي وهو يرقص معها، ويراقب عيونه ويبتسم. قال مخاطبًا نفسه: دعه ينبسط. لا أدري لماذا لا يتزوج؟

النساء يسحرن الرجال. لولا تلك الشهوة الجنسية لانقرض الناس من على وجه الأرض، فحكمة الله في خلقه أن جعلها جزءًا من الحب الذي يجمع بين الرجل وأنثاه.

كنت أفكر برانيا، وعندما كانت ترقص أمامي كانت رائعة مثلها، لكنها كانت تقتل روعتها عندما نعود إلى البيت، فبعد أن تجعلني في قمة الإثارة تعود لتحولني إلى رجل بارد. ما أصعبها من لحظات! لا يعرفها إلا من جربها، وهم من النوادر. يقينًا أن لا أحد عاش تلك اللحظات التي عشتها أنا.

رجل ينام مع زوجته في بيت واحد ولا يستطيع لمسها. رجل يحب زوجته ويراقبها عبر ثقب الباب، كأنه لص يتلصص على زوجات الآخرين.

رجل يكون في قمة إثارته الجنسية، ينظر إلى صدر زوجته، وإلى شفاهها، وإلى جسمها، يتمنى لو يلمس شيئًا منها، لكنه لا يستطيع ذلك حتى وهي تجلس بجانبه.

كم مرة كنت فيها في قمة إثارتي. كانت النيران تشتعل في قلبي وجسمي، لكن دون جدوى، فهل كتب علي أن أعيش هكذا؟!

الحب تضحية وقد ضحيت، لكن هل التضحية حرمان أبدي؟ وإذا كانت لا تريد أن تتغير فماذا أفعل؟ لن أعيش كالرهبان، فأنا بشر مثل بقية البشر لجسده عليه حق.

آه عليك يا رانيا.. قاتلت كل الناس من أجلك والنتيجة إلى الخلف.

عاد فادي تعبًا من الرقص. قال لي:

– دعنا نعود فقد اقتربت الساعة من الواحدة صباحًا، وجيراننا سيغادرن الآن.

فعلاً، كن يحضرن أنفسهن للمغادرة، لكننا سبقناهن، ودفعنا الحساب، وغادرنا المكان.

أوصلت فادي إلى بيته، وعدت إلى الشقة. كانت رانيا نائمة.

(٢٢)

استيقظت مبكرًا، فقد كان علي الذهاب إلى العمل. لم تستيقظ رانيا كعادتها، فنومها كان عميقًا. ناديتها فلم تجب. فتحت عليها الباب فكانت تغط في نوم عميق. ناديتها مره ثانية، وثالثة، ورابعة. ذهبت أوقظها. حركتها بيدي لم تتحرك. فجأة انتبهت إلى ورقة معلقة على المرآة الكبيرة التي تقف أمامها كل صباح لترتيب شعرها وتضع ماكياجها. ذهبت لأرى ماذا في الورقة الملصقة في المرآة باللاصق. لا بد أن شيئًا قد كتبته لي توصيني بعمله. سحبت الورقة وبدأت أقرأ.

زوجي العزيز سامح

اعذرني على كل ما سببته لك ولفادي. أعرف أني أثقلت عليكما، وأني سبب كل مشاكلكما.

لذلك هذه المرة قررت الانتحار نهائيًّا. لا تسعفني. دعني أموت وأستريح. لقد حاولت، لكني فشلت. أنا مقتنعة أن سعادتكما بالتخلص مني.

فإلى اللقاء.

طويت الورقة بسرعة، فقد عرفت أنها شربت علبة الدواء كعادتها. بحثت في الجوارير فرأيت علبة دواء المنوم فارغة. لا بد أنها شربتها. كيف لم أنتبه لذلك بالليل؟ يا إلهي.. قد تكون ماتت الآن. لن أنتظر سيارة الإسعاف. حملتها بين يدي وألقيتها على كتفي. كانت قد نامت بملابسها. حملت

مفاتيحي وخرجت. أغلقت الباب خلفي، ونزلت الدرج، وعندما اقتربت من السيارة شاهدني أحد الجيران فسألني ما الخبر؟ قلت له: إن زوجتي أغمى عليها. فساعدني على فتح باب السيارة وإدخالها إلى المقعد الخلفي. شكرته، وانطلقت باتجاه المستشفى.

وبعد أن أدخلوها إلى غرفة العناية المركزة، اتصلت بفادي وأعلمته الخبر. فحضر إلى المستشفى على الفور. قال لي:

– هدئ من روعك، فهذه عادتها كلما شعرت بذنبها. هذه ليست المرة الأولى التي تفعلها ولا الثانية، فقد فعلتها من قبل.

جاءنا الطبيب وأخبرنا بأن حالتها سيئة لأننا تأخرنا في إحضارها، وأشار إلى أنهم سيعملون لها غسيل معدة الآن.

بعد حوالي ثلاث ساعات كانت بغرفتها بوضع أفضل، وقد أفاقت من النوم. سعدت برؤيتها سالمة.

لم أشأ أن أعاتبها، فقد بتّ أعرف أنني أدفع ثمن حبي لها، وعلي تحمل كل ذلك لأنه خياري الذي اخترته بنفسي.

هنأها فادي بالسلامة وقال لها:

– الحمد لله على سلامتك.

– الله يسلمك.

– لماذا يا رانيا؟

قالت وهي عابسة، منكسرة:

- لأريحكما مني. ليتني متّ واسترحت.

- هذه الطريق ليست الطريق التي تسعدنا. كان عليك التخلص من الماضي لتحلي كل مشاكلنا ومشاكلك.

- لم أستطع. حاولت.

بدأت تبكي بحرارة، ثم تابعت كلامها:

- صدقاني أنني أحاول. أنتما لا تعرفان ما بداخلي ولا ما يدور بعقلي. لقد حاولت. لقد بذلت جهدًا للتغلب على نفسي، لكنني أعترف لكما أنني فشلت. لم أستطع ولن أستطيع. لا حل إلا بالطلاق. على سامح أن يهتم بمستقبله. ليته لم يوافق على العودة إلي. ليته تزوج تلك الفتاة التي كان سيخطبها.

استدارت نحوي وقالت:

- سامح.. سامحني أرجوك. أعرف أنك تحبني، وأعرف مشاعرك تجاهي. لقد قدمت لي الكثير والكثير، وأنا لا أستحق كل ذلك. لقد ضحيت من أجلي، وتألمت، وتعبت، وكنت نِعم الزوج الوفي. أنت أعظم رجل عرفته. فيك الشهامة، والأصالة، والنبل. أنا لا أستحقك. لن أجلب لك سوى المشاكل. لن أكون زوجة، فابحث عن زوجة تسعدك، واجعل من بقايا حبك لي، إن كانت له بقية، مجرد ذكرى تعود إليها كلما أردت العودة إلى الماضي. سامح.. لا تضيع الوقت. لقد أخذت من عمرك الكثير. سامحني..

سامحني.. أرجوك سامحني.

قال لها فادي:

– لا تتسرعي بطلب الطلاق، فسامح إن خسرتِهِ فلن تستعيديه بعد ذلك.

قالت والدمع يسيل على الخدين بغزارة:

– لا أريده أن يعود إلى النار. ساعده أن يجد الفتاة المناسبة.

قلت لها:

– لا أدري ماذا أقول لك. أنت الآن في وضع صعب. بعد أن ترتاحي يمكن الحديث في الموضوع. سنعيدك إلى البيت بعد قليل لتستريحي، ولكل حادث حديث.

– لا يا سامح. لن أحضر معك. سأتركك أنت ترتاح، وسأذهب إلى بيت أمي وأخي. مهما حصل فهي أمي وعليها أن تتقبلني.

– رانيا.. علاقتك مع أمك سيئة، وهي أول من يشمت بك.

– من حقها أن تشمت، فما حصل أنا سببه.

فقال فادي:

– تتحملين جزءًا منه، لكن لست المذنبة الرئيسة. أنت ضحية، ولهذا وقفنا معك. لكن...

صمت ثم تابع:

– الضحية عليها عدم الاستسلام للجاني. ألن تتخلصي بعد من تأثيره عليك؟

– ليتني أستطيع. الضحايا يا فادي قد لا يتخلصون أبد الدهر من جرائم سفاحيهم؛ فعندما يقوم مجرم بإصابة ضحية في عينها فيقلعها لها أو يقطع رجلها أو يدها، فكيف ستعيش الضحية؟

قلت لها:

– كأنك استسلمت للقدر.

– استسلمت لقدري.

– حسنًا.. سنعود إلى البيت وسنتحدث لاحقًا. لن أجبرك على شيء يا رانيا.

ذهبنا إلى مكتب المستشفى. دفعنا الحساب، وحملنا الأوراق، وأخرجناها من المستشفى. عدنا إلى البيت. ذهب فادي إلى عمله، ووعد بزيارتها مساء، وبقيت معها في البيت فربما تحتاج إلى العناية.

استلقت في سريرها، وتركتها ترتاح قليلاً، وعدت إلى غرفة الجلوس أتابع أخبار التلفاز، وأفكر في ما قالته رانيا.

ها هي تطلب الطلاق مرة أخرى، كأنها قررت ألا تتغير. تقول إنها حاولت فلم تنجح. هل هذا صحيح؟ هل فعلاً حاولت؟ كيف؟ وما العمل الآن؟ الطلاق.. الطلاق! كم مرة سأطلقها؟ هل استنفدت كل السبل؟ الطلاق الآن

بعد أن خسرت لمياء؟

يبدو أن حظي مع النساء تعيسٌ!

لكم تعذبت مع رانيا، لعلني خليفة قيس بن الملوح. بدأت أتمتم مطلع قصيدتي الجديدة:

"وأقسم أن قلبي في ثوان

تعذّب في هواكم ألف قرن"

ألف قرن؟ ما هذه المبالغة؟

نعم.. ألف قرن. لقد تحملت ما لم يتحمله زوج ومحب. هل العشاق مجانين؟ كأنني أحتاج إلى هزة قوية.

سيسخر مني كل الأقارب والأصدقاء كلهم، وأولهم أبي. سيقولون لي: "أرأيت؟ ألم نقل لك؟" فماذا سأقول لهم؟ سيسألونني: "لماذا طلقتها؟" لأننا لم نتفق؟ ضحكت لهذا المبرر، فسيردون علي قائلين: "لقد جربتها من قبل، فلماذا عدت إليها؟" حاولنا أن نحل مشاكلنا وخلافاتنا ففشلنا.

فجأة خطرت لي فكرة.

لماذا لا أقول لهم إنني سأطلقها لأنها لا تنجب أولادًا؟ هذا مبرر سخيف. لماذا الكذب؟ لماذا التخفي وراء الأكاذيب؟ فهل سنقول الحقيقة؟

لا.. لا تقل شيئًا. لماذا عليك أن تبرر طلاقها؟

من يسألك قل له: كل منا في طريق. قل لهم ما قاله الأعرابي للقاضي عندما سأله:

– لماذا تريد أن تطلق زوجتك؟

فقال له الأعرابي:

– إنها زوجتي يا حضرة القاضي، ولا يجوز أن أبوح بأسرارها.

أعجب القاضي برده وحكم له بالطلاق. وعندما خرج من المحكمة سأله زملاؤه:

– لماذا طلقتها؟

فقال لهم:

– لم تعد زوجتي، وليس من حقي استغابة الناس. الله يوفّقها ويسهل أمرها.

يا لهذا الأعرابي الوفي؛ لقد كان أذكى مني أنا الذي أضيع الوقت باحثًا عن جواب مقنع لما قد نقدم عليه. هل فعلاً أصبح الطلاق أمرًا لا مفر منه؟ هل سأوافق؟ وماذا باستطاعتي أن أفعل إن أصرت على موقفها؟ أنا أصلاً زوج على ورق.

فعلاً.. الحب أحيانًا يقتله الزواج، ويجعله نارًا على أصحابه.

إذا أصرت على الطلاق، وحصل، لن أظل في صيدا. سأبحث عن عمل في بيروت. بيروت؟ ما الفرق، لا.. لا.. سأبعد أكثر، إلى الخليج. ربما إلى

أستراليا أو أمريكا. فكرة رائعة. سأرتاح من عيون الأصدقاء والأقارب. سأحاول أن أتخلص من نارها لعل البعد يطفئ نيران حبها كما تطفئ الأعاصير النيران المشتعلة في الغابات.

(٢٣)

اليوم هو (السادس من تشرين ثان ٢٠٠١).

رن جرس الهاتف. دققت في الرقم؛ مفاجأة. لم أصدق أنه هو، فمنذ تلك الحادثة لم يتصل بي. لم يعلن مقاطعته، لكنه ابتعد عني. كان علي أن أذهب لأعتذر له وأصالحه بأية طريقة، لكني انشغلت برانيا التي كانت مشاكلها تأخذ كل وقتي، ومرت الأيام وصار الوقت متأخرًا.

- ألو.. كيف حالك؟

- أهلاً سامح. منذ مدة لم أسمع صوتك.

- كان علي أن أزورك، لكني كنت أعتقد أنك غاضب علي، فأحببت أن أنتظر فرصة تكون قد هدأت.

- لا تقلق أنا بخير. أريد أن أراك. لك عندي دعوة.

- دعوة ماذا؟

- لا لن أقول لك حتى أراك.

- أنا جاهز. أين تريد أن نلتقي؟

- في مقهى حسان. أريد أن أدخن أرجيلة اليوم عنده مساء.

- الساعة السادسة؟

- موعد مناسب.

الساعة السادسة كنت في مقهى حسان. كان قد سبقني إلى هناك. يدخن الأرجيلة، ويشرب عصير الليمون. وقف عندما رآني. سلمنا على بعض وتعانقنا، فنحن أصحاب من الطفولة. نزلت على خدي دمعتين.

قلت له معاتبًا:

- هكذا يا أسعد تقاطعني كل هذه المدة؟

هز رأسه أسفًا وقال:

- لا نريد أن نعاتب بعضنا. لا تنس كم أحرجتني أمام أهل لمياء يا سامح. على كل حال أنا الآن أدعوك لحضور حفل زفافي.

وقدم لي بطاقة الدعوة.

- صحيح؟ ألف مبروك. متى؟ ومن سعيدة الحظ؟

- الاحتفال في مطلع شهر كانون ثان. في القاعة المطلة على البحر بجانب القلعة، والعروس تعرفها.

قرأت بطاقة الدعوة وقرأت الاسم: سعاد. نظرت إليه بفرح وقلت:

- أتمنى لك التوفيق يا أسعد، أنا سعيد أنك اخترتها.

فقال لي:

- وأنت ما أخبارك؟ متى سنرى لك ولدًا؟

ضحكت وقلت له:

– الله كريم.

نظر إلي كأنه قرأ أفكاري، وسألني:

– هل الأمور على ما يرام؟ لا تخفِ عني شيئًا.

قلت له بأسى:

– لا يا أسعد. الأمور لا تسير كما نريد. لقد وصلنا إلى اتفاق على الطلاق.

قطب حاجبيه وقال:

– كنت أتوقع ذلك. يا سامح.. رانيا لن تنفعك. هي ليست من ثوبك. دعك منها وابحث عن مستقبلك. آخ.. آخ.. ليتك خطبت لمياء، لكنت الآن أسعد إنسان في لبنان، لكنك تأخرت، فقد خطبها لبناني من الذين يعملون في الإمارات، وسوف يأخذها إلى هناك بعد زفافه بها.

سألته:

– متى زفافها؟

– بعد أسبوعين، أي قبل زفافي أنا. لقد خسرت فتاة مثقفة ومتحدثة. ضاعت منك فتاة كانت ستريحك العمر كله وأنت تجري وراء رانيا، وها أنت اليوم ستطلقها، ومتى الطلاق؟

- في الأسبوع القادم.

- ولماذا وصلتم إلى الطلاق؟

- لا تشغل بالك بمشاكلنا. المهم سأتحرر من الزواج، وقد قررت الهجرة إلى أمريكا.

- أمريكا؟ سامح.. أتتركنا؟

- يا أسعد.. ضاقت لبنان بوجهي؟

- لماذا؟ لماذا يريد الكل أن يهاجر؟ لمن نترك لبنان؟ لماذا يهاجر الشباب ويتركون الوطن خاليًا؟ اللبنانيون المغتربون ربما أكثر من سكان لبنان.

- لعلها فرصة للعمل وللاستراحة!

- أعرف أنها أتعبتك. لم تسمع كلامي. أرجو ألا تكون لا تزال تحبها.

ابتسمت وقلت له:

- وما الفرق؟

- كبير جدًّا.

- كيف؟

- إن كنت على الرغم مما حصل ما زلت تحبها، فإنك لم تتعلم الدرس، وقد تقع في المطب نفسه لاحقًا، وإن نزعتها من قلبك فإنك قد وضعت قدميك على أول الطريق الصحيح.

- وكيف أنزعها؟

- مثلما ينزع المصاب سهمًا من جسمه أو رصاصة دخلت في بطنه. سيشعر بالألم، لكنه سيرتاح بعد ذلك.

- أبهذا البساطة؟

- طبعًا يا سامح. كل تضحية من جانب واحد حسب وجه نظري لا تساوي شيئًا. حتى الناس الذين يقاتلون من أجل شعبهم ويضحون من أجل حريته إن لم يكرمهم الوطن وأبناؤه سيحبطون وسيندمون على ما قدموه.

- لهذا قررت السفر. سأحاول أن أخرج من حياتها، وأخرجها من حياتي.

- أنت هارب من مواجهه الحقيقة. هارب من نظراتها إليك. هارب من الناس الذي سيسألون: "لماذا طلقها سامح؟!"

- دعنا منها الآن. بعد أسبوع ستصبح امرأة أخرى. لكن أحب أن أسافر إلى قبرص للحصول على فيزا للسياحة إلى الولايات المتحدة. أنت تعرف أن القنصلية هنا لا تمنح فيزا بسبب أحداث زمان.

- بسيطة. السفر إلى قبرص لا يحتاج إلى تأشيرة، والمسافة قصيرة أقل من ساعة بالطائرة. لكن لماذا السرعة؟

- أحب أن أقدم الطلب وأنا متزوج، فقد يكون أسهل للحصول على التأشيرة، فإن قلت لهم طلقتها فقد يرفضون ويعتقدون أنني ذاهب للاستقرار هناك.

- إياك أن تسافر قبل أن أودعك، وقبل حضورك حفل زفافي.

- ولو يا أسعد. حتى لو كنت في أمريكا سأحضر إلى هنا.

سامح في الطائرة المتجهة إلى قبرص حاملاً معه كل الأوراق التي قد تطلبها السفارة الأمريكية هناك؛ شهادة عقد زواج. بطاقته الشخصية. شهادته الجامعية. وثيقة تؤكد عمله في البنك العربي في صيدا. شهادة حسن سلوك. شهادة خلو من الأمراض. رخصة السواقة، وحتى صور شخصية له ولرانيا. لم يترك وثيقة أو ورقة قد تخطر في بالهم.

في اليوم التالي كان أمام السفارة التي تشبه القلعة؛ قلعة حرب، سور من كل الأطراف. حراس في كل مكان. الناس على الدور كأنهم ذاهبون إلى الجنة. يا إلهي.. ماذا لو تفتح أمريكا أبواب الهجرة لكل الناس؟ ستصبح في حجم الصين وربما أكثر. لماذا يهاجر الناس من بلادهم؟ الفقر. الاحتلال. القمع. الهرب من الواقع... لماذا لم يهرب الأمريكان من بلادهم؟ لعلهم يشعرون بالأمان هناك، أو ربما يهاجرون مثلنا، ولكن ليس للبحث عن عمل، ولكن للبحث عن بلد جديد غني ليغزونه ويسرقون خيراته.

كنت أقف بعد عشرين شخصًا، وعندما جاء دوري، خضعت كما الآخرين إلى تفتيش دقيق في كل أنحاء جسمي ومررت عبر آلة إلكترونية، وعندما تأكدوا أنني لا أحمل شيئًا يعرقل الأمن سمحوا لي بالدخول.

دخلت من قاعة إلى أخرى حتى صرت في قاعة المراجعين. كان الناس ينتظرون دورهم. كل منهم يحمل رقمًا سحبه من ماكينة خاصة بذلك. كان

المراجعون مقسّمون إلى عدة شبابيك؛ أحدها للزيارة أو السياحة وآخر للهجرة وهكذا.

عندما جاء دوري قدّمت الطلب وكل ما بحوزتي من أوراق إلى الموظفة المسؤولة، فأعادتها إلي بعد أن دققت بها. جلست كالآخرين. كان كثيرون منهم لبنانيين. أحدهم كان من أميركا جاء ليقدم طلبًا للهجرة لزوجته اللبنانية، لكن القنصل رفض طلبه لأن أوراقة غير كاملة. لقد أكد اللبناني للقنصل أنها زوجته، وقدم شهادة عقد قران، لكن القنصل طلب منه صور العرس أو نسخة عن كاسيت الفيديو للحفل، فادعى أنه لم يحضره، فسأله عن نسخ لفاتورة الهاتف عندما كان يتصل بها من الولايات المتحدة، فقال إنه كان يتصل بها من خلال الكروت المدفوعة مسبقًا، فسأله القنصل عن نسخ لمراسلات معها عبر الإنترنت، فقال له إنه لا يحتفظ بنسخ منها، وعندما فشل في إثبات زواجه بها إضافة إلى عقد الزواج، رفض القنصل طلبه، فشهادة عقد الزواج لم تكن كافية. كثيرون كانوا يعقدون قرانهم على أشخاص ليساعدوهم في الحصول على كرت الإقامة الأمريكي، وهناك يطلقونهن، ولذلك أصبح القنصل يطالب بإثباتات أخرى تؤكد صدق الزواج.

أما مفاجأة اليوم فكانت لبنانية جاءت لتستلم فيزا الهجرة للالتحاق بزوجها في ولاية كاليفورنيا. سألها القنصل:

– هل تقسمين اليمين لأن تكوني مواطنة تخدم الولايات المتحدة وتدافع عنها؟

– لا.

استغرب القنصل وسألها:

- لماذا لا تريدين الهجرة إلى الولايات المتحدة؟

- لأن زوجي يعيش هناك.

- ألا تريدين الهجرة إلى الولايات المتحدة؟

- لا.. أحب لبنان ولا شيء سواه.

- فلماذا لا تعيدين زوجك إلى لبنان وتعيشين معه هناك؟

- ليته يفعل.

لأول مرة مواطنة لبنانية لا تريد الهجرة إلى أمريكا.

- آسف أنني لا أستطيع منحك فيزا المهاجرة.

لم تتأثر تلك اللبنانية وقالت له:

- شكرا لك سيدي القنصل.

حملت أوراقها وجواز سفرها بعد ختمه بعدم السماح بدخول الولايات المتحدة، وخرجت رافعة رأسها كأنها ترفع فوقها لبنان كله.

هذه المرأة كانت أشجع مني. قالتها بصراحة. أما أنا فقد تراجعت، وعندما سألني القنصل لماذا سأذهب إلى أمريكا، قلت له:

- للسياحة!

- إلى أين؟

- إلى فلوريدا.

- لماذا فلوريدا؟

- لأن طقسها دافئ في فصل الشتاء.

- لماذا لا تزور مصر، أو سوريا، أو تركيا القريبة؟

- أحب أن أزور أمريكا رمز الحرية والديمقراطية في العالم.

قلتها معجبًا مع أنني كنت في داخلي غير مقتنع بما أقول. كيف تكون بلد الديمقراطية وهي التي ترسل أسلحتها إلى إسرائيل لتقتل أطفالنا بها؟

قال لي مبتسمًا:

- وكم ستمكث هناك؟

- فقط أسبوعان.

- وهل ستعود بعد ذلك؟

- طبعًا، فعملي بانتظاري.

هز رأسه موافقًا، وطلب مني الانتظار مرة أخرى. كان قلبي يدق خوفًا من رفض طلبي.

يا لهذا القلب الذي تفرحه تأشيرة سياحة على جواز سفره! يا لهذا القلب الذي أضناه العشق فقرر هجر بلد المحبوب، كأنني أنفذ وصية قيس بن

الملوح وهو يقول لليلى:

"ألا اتركيني بلاد الله واسعة

غدًا أبدّل أحبابًا وأوطانا"

تبديل الأحباب قد تكون مفهومة، لكن كيف نبدل أوطاننا؟ كيف نتخلى عنها؟ نترك فيها ذكرياتنا، مشاعرنا، تاريخنا، أهلنا ونهجرها سعداء.

يا لهذا الوطن الذي يفرح بعض أبنائه بهجره!

عادت الموظفة ونادت على اسمي، وعندما اقتربت من الشباك كنت أدعو الله أن تكون النتيجة خيرًا.

قلت في داخلي: "بسم الله الرحمن الرحيم. يا رب. يا الله عطفك ومساعدتك".

قالت لي الموظفة بابتسامة عريضة:

- مبارك.

وأعادت لي جواز السفر مختومًا.

شكرتها واستدرت عائدًا. فتحت صفحات جواز السفر متلهفًا، وكانت المفاجأة تأشيرة مفتوحة لمدة خمس سنوات أستطيع خلالها السفر إلى الولايات المتحدة متى شئت.

ما هذا الكرم الحاتمي؟ هل صدقوا أنني سأعود بعد أسبوع، أم أنهم

يدفعونني إلى الهجرة دفعًا لتصبح لبنان فارغة من أهلها وتصلح أراضيه مطمعًا لجارته الجنوبية؟

خرجت مزهوًّا كأنني عائد بشارة النصر.

في المساء كنت في لبنان. استقبلني أخي وليد. سألني:

– كيف النتيجة؟

فقلت له:

– منحوني تأشيرة لخمس سنوات.

فقال لي:

– وهل ستسافر فعلاً وتبقى هناك؟

– سأسافر. لكن لا أعرف متى سأعود. ادع لي بالتوفيق.

قطب حاجبيه وقال:

– سنفتقدك يا سامح. لقد تغيرت منذ عرفت رانيا. لم تأخذ قلبك وعقلك فقط، بل أبعدتك عنا كلنا، لولا ما حصل معها لما فكرت بالسفر.

استيقظت مبكرًا هذا اليوم، وجهزت نفسي لساعة الفراق. اليوم سأتوجه مع رانيا إلى المحكمة الشرعية. سألتها:

– ألن يأتي معك أحد من أهلك؟

– لا. كما تزوجنا، سنفترق؟

- ألا تريدين أن تخبريهم؟

- ليس الآن.

- لماذا؟

- أريد أن أسكن وحدي، وأبحث عن عمل.

لن أعود إلى ظلم أمي. الآن بعد ما حصل سيفرضان علي شروطهما. يريدانني العمل ومنحهم راتبي.

- على كل حال أنا سأسافر إلى الولايات المتحدة. يمكنك البقاء في البيت.

- حقًّا؟

- نعم.

- ومتى ستسافر؟

- بعد شهر إن شاء الله.

- هكذا ستتركنا؟

- أليس هذا ما تريدينه؟

- سامح.. طلبت منك الانفصال لتبحث عن سعادتك، ولكني لم أغير رأيي فيك، ولم أتخل عن صداقتك.

- يحتاج القلب إلى بعض الوقت ليحول حبه إلى صداقة. يحتاج ربما إلى ثورة داخلية.

قالت لي مقاطعة:

- ستتغير عندما تتزوج امرأة تحبها من جديد.

- وهل تعتقدين أنني سأجدها؟

- لم لا؟ ألف صبية تتمنى غمزة من غمزاتك.

ضحكت متعجبًا! وقلت:

- أإلى هذا الحد أنا وسيم؟

- لست فقط وسيمًا. أنت فيك كل ما تبحث عنه امرأة في شريك حياتها. لماذا لا تعد إلى لمياء؟ هل نسيتها؟

هززت رأسي وقلت لها:

- لمياء تزوجت يوم أمس.

صمتت وقالت:

- أنا السبب. ليتني أستطيع أن أعيدها لك. هل تريدني أن أعرفك إلى إحداهن؟

- كلا.. فأنا سأسافر بعد شهر، ولولا أنني سأحضر حفل زفاف صديقي أسعد لسافرت بعد أسبوع.

- كأنك ضقت ذرعًا بصيدا.

- أحيانًا أشعر بأن هذا الوطن صغير، لا أستطيع التنفس فيه. من يدري

فقد أشتاق إليه، وأعود بعد غياب قصير.

توجهنا معًا إلى المحكمة بسيارتي كأننا ذاهبان إلى نزهة. لقد فشلت في إقناعها بالعدول عن قرارها. لم يأت معنا فادي. قال لنا:

- لن أحضر محكمة طلاق.

الحق معه، فكيف يحضر معنا وقد طالبها بالعودة عن قرارها. قال لها في اليوم السابق: "ستندمين يا رانيا.. ستندمين". فقالت له: "قد أندم لأنني خسرت سامح كزوج، لكنني سأكون سعيدة عندما أراه غدًا مع زوجته وأولاده يسرحون ويمرحون، بعد سنوات ستغيّران رأيكما بي، وستعرفان أنني قد اتخذت القرار الصائب".

صعدنا الدرج الذي صعدناه سابقًا أكثر من مرة، حتى تعوّد علينا. قدمنا إلى الموظف المسؤول طلبنا، وانتظرنا دورنا، وعندما جاء دورنا دخلنا إلى القاضي نفسه الذي دخلنا عليه في المرة السابقة. نظر إلينا بعد أن قرأ الأوراق التي بين يديه. قال لي:

- لماذا يا بني؟ الطلاق ليس مزحة.

- يا سيدي القاضي، هي التي طلبت الطلاق.

نظر إليها وهز رأسه، سألها:

- لماذا تطلبين الطلاق يا بنيتي؟

- لا أستطيع أن أسعده.

- هل فكرت في الأمر.

- كل التفكير... (بدأت تبكي بغزارة).

سألها:

- هل قصر في شيء؟

- لا.. لقد كان نعم الزوج؟

- فلماذا تريدين الطلاق؟

- لا أعرف، لا أستطيع أن أكون زوجة تسعد زوجها.

كان بكاؤها يثير الشفقة. أعترف أن دموعي انهارت معها، ولم أستطع وقفها. على الرغم من اتفاقنا على الطلاق، لكن ساعة وقوعه لها رهبة لا يشعر بها إلا من جربها.

قال لها القاضي:

- تعرفين أنك تتنازلين عن كل حقوقك؟ لا مهر ولا أي شيء.

- أعرف. لا أريد منه سوى أن يسامحني.

استدار لي وقال:

- وأنت يا بني، هل تريد منها شيئًا.

- لا.. لا أريد شيئًا.

قال القاضي لها:

رددي ورائي يا ابنتي: "أنا رانيا الصيداوي خلعت نفسي منك..."

ثم قال لي:

ردد ورائي:

"... ..."

صادق القاضي على قرار الطلاق، وختم الأوراق، وقدمها إلى حاجب المحكمة. كان الحاجب والموظفون حائرين في امرأة تطلب الطلاق وتبكي لأنها حصلت عليه.

قلت لها في الطريق إلى البيت:

– سآخذ كل أغراضي الخاصة في البيت، وسأترك لك ما تبقى فلن أحتاج إليه.

– لماذا لا تعطيه لأهلك؟

– ليسوا بحاجة إليه، ستحتاجين إلى أثاث في البيت الذي ستسكنين فيه.

– لست مجبرًا أن تفعل ذلك. لقد تنازلت لك عن كل شيء.

– أعرف ذلك. تنازلت عنه كزوجة وأقدمه لك كصديقة. ألم تقولي إننا أصدقاء؟

– حقًّا؟ هل بدأت تشعر بذلك؟ ليتك تجرب. سترى كم أنا مخلصة لك.

في المساء زارني فادي. قال لنا بعد أن عرف أننا تطلقنا:

– ماذا ستفعل يا سامح؟

– سأترك البيت غدًا، فهي لا تحل لي كزوجة.

نظرت إلي وقالت:

– البيت بيتك. ابق به حتى سفرك وأنا سأتركه.

– لا تقلقي علي، فلديّ الكثير مما علي عمله مع أهلي قبل سفري. سأكون مشغولاً بوداعهم.

قال لها فادي:

– دعيه يفعل ما يريد، فقد يكون النوم خارج البيت الآن أكثر راحة له ليستريح من التفكير بالكوابيس التي تزوره فيه.

قالت رانيا:

– أرجو أن تساعدني في البحث عن عمل. سأبدأ منذ الغد بالبحث عن عمل مناسب.

قال فادي:

– لم أتوقع هذه النهاية الحزينة لكما. أنا حزين لأن صديقًا عرفته وأحببته سيغادر البلد حزينًا. سامح.. هل قرار السفر نهائي؟ هكذا ستترك البلد؟

– سأعود إن شاء الله يوما مًا.

- هل ستعود مع أمريكية شقراء؟ (قال فادي مازحًا).

عدت إلى بيت أهلي مرة أخرى مع حقيبة ملابس. سألتني أمي بعد أن عرفت الخبر:

- لماذا تركت لها الشقة؟

- وماذا سأفعل بها؟ كنت سأعيدها إلى صاحبها على كل حال، فأنا عازم على السفر بعد شهرين القادم.

- أتترك لها كل الأثاث؟

- لا أريد شيئًا يذكرني بها كل لحظة.

- نبيعه، فهي لا تستحقه.

- أمي.. لا تضيعي وقتك في أشياء جانبية. إذا ذهب الحصان فما أهمية سرجه؟!

- ولماذا طلقتها؟

- لم نتفق؟

- أنسيت كلامك لي؟ العشاق لا يختلفون.

- لم أنس نعم. العشاق لا يختلفون.

- لم أفهم.

- يبدو أننا لم نعد عشاقًا، أو بقي أحدنا عاشقًا والثاني تغير.

– طبعًا أنت بقيت، وهي التي تغيرت.

– لا أعرف مَن بالضبط. لكن دعي الماضي ينطلق مسرعًا ولا تعرقلي قاطرته، ولننظر إلى المستقبل بعيون ثاقبة.

– أنا حزينة لما أصابك. لم أتوقع كل ذلك منها. لا تهتم. سأخطب لك أفضل منها.

– لا وقت لذلك يا أمي. سأسافر كليًّا من لبنان.

– أتتركنا بهذه السرعة؟

– سأبحث عن مستقبل أفضل.

– ولكنك في وضع مريح، وتعمل في البنك العربي. لماذا الهجرة إلى بلاد الأمريكان؟

فجأة دخل أبي الذي عاد إلى البيت. رحب بي. سلمت عليه وتعانقنا.

– سامح.. اشتقنا لك. أهكذا لا نراك إلا عندما تصبح بلا زوجة؟ هذا البيت بيتك، وغرفتك كما هي.

– شكرًا يا والدي. لن أبقى طويلاً، فأنا سأسافر.

– علمت من وليد بذلك. قد تكون فرصة لك كي تنسى كل ما حصل لك وتريح أعصابك، وتعود إلينا بهمة جديدة.

قالت له أمي:

– أتشجعه على الهجرة يا أبا كامل؟

– يا هدى.. أنا لا أشجعه، لكنه بالتأكيد يمر في أزمة عاطفية الآن بعد أن انهارت أحلامه القديمة. إنه يحتاج إلى فترة نقاهة.

– ليحمد الله أنه تخلص منها قبل أن يرزق بأولاد. سأزوجه بأجمل منها عندما يعود.

– عندما يعود فبنات لبنان في كل مكان.

صمت برهة ثم قال:

– وحتى في أمريكا.

– أتريده أن يبقى هناك؟

– كلا. يمكنه الزواج والعودة بها.

– أخاف ألا يعود إلى لبنان يا أبا كامل.

– لا تقولي ذلك. سيعود سامح. معدنه لبناني. يحب لبنان من جنوبه إلى شماله. يعود لأنه لا يقبل أن يتركه لتجار الطوائف الذين يتاجرون به بعضهم يريد أن يرهنه هنا وآخرون هناك. إنه قدر اللبنانيين أن يصبح بعضهم أداة في يد قوى خارجية لا تريد للبنان السعادة والأمان.

قلت لوالدي:

– يا والدي.. نحن بلد تعبث به رياح الطائفية، والحزبية، والمناطقية. كل

منا يريد لبنان حسب طريقته، لا خيار لنا إلا التفاهم حتى لا نغرق في حروب جديدة يدفعنا الجميع إليها.

قالت أمي:

– الله يجيب الخير للبنان وللعرب أجمعين.

فجأة سألني أبي:

– ماذا ستفعل بأثاث شقتك؟

– سأتركه لها.

قطب حاجبيه، وقال:

– تترك أثاث البيت لها؟

– يا والدي.. لقد قلت لأمي قبل قليل، لقد خسرت زوجة وحياة عائلية، فهل ألاحق كرسيًّا هنا وخزانة هناك؟

– أنا مستعد لبيعه لك.

– لا تتعب نفسك، فقد أعطيتها كلمة، فهل تريد من ابنك أن يتراجع عن كلمته ووعده؟

– أعرف أنك أصيل، لكن طيبة قلبك هذه سبب مشكلتك معها. لو فكرت في المرة الأولى لما عدت إليها. ربما كنت الآن في شقتك مع لمياء.

فكرت بكلام والدي (لولا طيبة قلبك!)

الكل يعترف بأنني طيب القلب حتى هي. كم قالت لي أنت صاحب أطيب قلب، وكم غنت لي (القلب الطيب). ألم تهدني تلك الأغنية عندما طلبت من حسان هاشم أن يغنيها؟

ماذا ينفع القلب الطيب عندما يخسر كل شيء؟ ماذا ينفع القلب الطيب وهو يرى أن لا قلب يكسب الرهان سوى القلب القاسي؟

هل نحن في سباق؟ هل المسألة فقط من يكسب ومن يخسر؟! كل فلاسفة العالم وحكمائهم وعشاقهم أتعبتهم الحياة ولاحقهم الناس، ولكنهم ظلوا يعيشون في التاريخ، وذهب كل قساة القلوب إلى الجحيم. جحيم.. أي جحيم أكبر مما أنا فيه؟!

"وأقسم أن قلبي في ثوان

تعذب في هواكم ألف قرن"

لاحظ أبي شرودي، فقال لي:

– يبدو أنك سرحت. لا تقلق. سنغلق هذا النقاش.

استدار إلى أمي وسألها:

– ماذا حضرت لنا من عشاء؟ سامح عندنا.

– ولو! سأحضر لكم أشهى الأكل الآن.

وقفت وغادرت إلى المطبخ.

ناداها أبي وقال لها:

– اتصلي بالأولاد ليسهروا عندنا، إنها مناسبة لجمع العائلة معًا.

– حسنًا.. سأتصل الآن.

قلت لوالدي:

– سأعود لك بعد قليل. تركته وذهبت لأستحم وأغير ملابسي بعد تعب اليوم. كنت خلال الحمام أغني كعادتي. هذه المرة انعقد لساني فما عدت أريد أن أغني للحب، كأنني أصبحت عدوًّا له. لا لست عدوًّا لكنني محبط. ما أتعس حظي!

أول حب في حياتي يتحول إلى رماد. وحتى عندما حاولت جمع ذلك الرماد لأحتفظ به تطاير في الهواء وسقط في البحر. قد تبلعه الأسماك.

أخاف أن يذوب في الماء، فيشربه الناس فيما بعد فيصابون بالعدوى نفسها .

من يدري؟ فقد يتساقط بعض الرماد على رمال شاطئ صيدا.

أيها الناس.. أيها العاشقون.. إذا استلقيتم يومًا على رمال صيدا تذكروا رماد قصة عاشق تساقط (الرماد) فوق تلك الرمال التي تجلسون عليها. ماتت قصة حبي. توقف قلبها عن الخفقان. تجمد الدم في عروقها. خرجت الروح منها. أصبحت مجرد ذكرى لرياح وأمواج بحر صيدا العظيم. كان الماء ساخنًا، وصوتي حزينًا. بدأت أردد أغنية محمد فؤاد:

"خسارة فيك حبي

خسارة فيك قلبي

وخسارة أبكي عليك..."

(٢٤)

كانت القاعة تعج بالمدعوين، والفرقة الموسيقية تملأ المكان صخبًا بأصوات آلاتها الموسيقية، ومطربها الشاب.

استقبلنا أهل العروسين على الباب، وعندما رآني أسعد قادمًا مع والدي ووالدتي جاء واستقبلنا بحرارة، وأجلسنا بنفسه في موقع حجزه لنا.

جلسنا حيث أشار إلينا أسعد، وانتظرنا بقيه العائلة الذين أخبرونا أنهم في الطريق.

لماذا أخاف الهزائم؟ لماذا يصيبني الإحباط والكآبة لأنني خسرت هذه وتلك؟ ألا يوجد في لبنان غيرها؟ انظر إلى تلك المرأة الأربعينية، لعمري أنها أجمل منهن جميعًا.

اخرج يا سامح من القمقم الذي وضعت نفسك به. لا تكن غبيًّا. طيبة القلب لا تنفع دائمًا. هيا ابتسم، وافرد جناحيك، فلا وقت للبكاء، ولا للحزن، ولا للوجه العابس.

قال أبي لأمي:

- انظري لسامح عيونه تنتقل من واحدة إلى أخرى كأنه...

قاطعته أمي وقالت:

- يبحث عن عروس. حسنًا.. فليقل لي من يختار وأنا سأخطبها له.

ضحكت وقلت لها:

- عندما أعود.

فجأة دخل كمال وزوجته، ثم تبعه وليد وزوجته، وأخيرًا زاهي، ثم البقية. جلسنا إلى طاولتين متجاورتين، بعضهم أحضر الأولاد، وآخرون تركوهم في البيت.

المطرب يدعو الجميع ليدبكوا مع العروسين.

تقدم أسعد ببذلة زفافه ويده في يد عروسه سعاد ووقفت مع الواقفين ندبك معه. إن لم أدبك وأرقص وأغني لأسعد، فلمن يا ترى؟ إنه صديق الطفولة.

كنا حولهما في حلقة دائرية. كانا يدبكان معنا كنجمين متلألئين والموسيقى تثيرنا وتشحننا وتدفعنا إلى المزيد. على أنغام أغنية وديع الصافي دبكنا معهما حتى تعبنا، فانتقل المطرب إلى وصلة جديدة ليعطينا مهلة استراحة. كان أسعد وسعاد في قمة سعادتهما، لم لا؟ فهذه ليلتهما. كنت أتمنى أن تكون ليلة زفافي مثلها؛ لقد تزوجت كالغريب وطلقتها كلص لا يريد أن يراه أحد.

لا أعرف لماذا كان قدري أن أقع في طريقها؟ كانت أخوات سعاد يدبكن معنا حول أختهن. لمياء وزوجها كانا نجمين في الحفلة. تفحصت زوجها الجديد. يبدو في الأربعين من عمره. يكبرها بحوالي ١٧ سنة. هذا نصيبها من يدري؟ لعله يسعدها، بل هي التي ستسعده.

هكذا الدنيا؛ السعادة تسير تجاه ناس بدون عناء، وبدون أن يتعبوا في البحث عنها، تمامًا كمن يرث مال أبيه الغني. وآخرون يقدمون التضحيات

لإسعاد الآخرين فتغلق في وجوههم كل الطرق.

هذه الحياة غريبة؛ بعض الناس يعمل ليل نهار ليطعم أولاده، وآخرون لا يعرفون من أين تأتيهم الأموال وهم جالسون في مكاتبهم.

قالت لي أمي:

– أليست تلك الفتاة التي تجلس بجانب زوجها التي كنت ستخطبها؟

– نعم يا أمي. هل تريدين أن تقولي شيئًا؟ الحياة قسمة ونصيب.

هزت رأسها وقالت:

– لو حكمت عقلك لكانت من نصيبك. ركبت رأسك ولحقت برانيا. لا أدري لماذا كنت متمسكًا بها كل هذا التمسك؟

– انتهى كل شيء يا أمي. لا ينفع كل هذا الكلام.

فتدخل وليد الذي كان يجلس معي حول الطاولة نفسها:

– يا أمي.. لا تزيدي جروحه. يكفيه ما به. الآن قد تحرر منها وندعو له بالتوفيق.

(٢٥)

وصلت الطائرة إلى مطار ديترويت- متشغان. كان المطار كبيرًا، أكبر من مطار بيروت بمرات. الناس في الطائرة من أجناس كثيرة؛ بعضهم عرب فلسطينيون ولبنانيون وعراقيون... تعرفت إلى بعضهم في الطائرة، فقد كان حظي أن أحد الفلسطينيين اللاجئين في لبنان كان يجلس بجانبي. حدثني طوال الطريق عن أمريكا، ومجالات العمل في الولاية التي أنا متجه إليها. لقد قلت للقنصل إنني ذاهب إلى فلوريدا لأنها بلد سياحي لأقنعه بالحصول على الفيزا، لكنني في حقيقة الأمر لا أنوي التوجه إلى هناك.

قال لي:

- لا تقلق. الجالية اللبنانية هناك كبيرة. لن تجد مشكلة في التأقلم. ستشعر أحيانًا أنك في لبنان. هناك المطاعم والنوادي والمحلات. عندما تزور محلات أسواق المصطفى ستشعر كيف أن الجالية اللبنانية قد أصبحت تشكل ثقلاً في الحياة هناك.

سألته:

- وما أسواق المصطفى؟

- محل تجاري كبير، فيه كل ما تحتاجه من مأكولات عربية وإسلامية وأمريكية. ليس المهم مساحته، ولكن نظافته وخدمته، وهو يعمل حسب الطريقة الأمريكية عبر الكمبيوتر، حتى أن الصحف العربية والمجلات تباع

هناك.

– رائع. هل لك أن تكتب لي عنوانه؟

لا أعرف عنوانه، لكن اسأل عنه أي لبناني في ديربورن وسوف يدلك عليه. إن أحببت اتصل بي بعد أن ترتب أمورك، سآخذك لزيارته.

– شكرًا لك. هل تعتقد أنني يمكن أن أجد عملاً هناك؟

– لا أعرف يا سامح، لكن يمكنك الاستفسار من صاحب المحل، فصاحبه الحاج حيدر رجل طيب جدًّا.

ارتحت قليلاً لهذا الكلام، وعزمت وأنا في الطائرة أن أقابل الحاج حيدر لأسأله عن عمل. جئت إلى أمريكا أبحث عن عمل، مع أنني كنت أعمل في البنك العربي في صيدا. ودعت لبنان والأهل كلهم. ودعتها وودعت فادي. لا أدري متى سأراهم. أنا اليوم تحولت ليس إلى سائح، بل إلى مهاجر، يسمونني مغتربًا مع أنني حقيقة سأكون لاجئًا. جئت أبحث هنا عن عمل وإقامة وراحة نفسية. جئت هاربًا من ذكريات أليمة.

كنا في لبنان أحيانًا نضيق ذرعًا باللاجئين الفلسطينيين، وكان بعضنا يريدون طردهم. ضقنا ذرعًا بهم مع أنهم طُردوا من بلادهم، وها أنا اليوم مع أحدهم نبحث عن لجوء آخر.

لماذا يريد اللبنانيون أن يمنحوا في بلاد الآخرين حق العمل، والمساواة، والمواطنة، ويرفضون أن يعاملوا اللاجئين في بلادهم بالمثل مع أنهم جيرانهم وأشقاؤهم؟!

قلت لجاري:

– من أين أنت من لبنان؟

– أنا من منطقة شاتيلا.

– ولماذا هاجرت من لبنان؟

– يا سامح.. أتسألني؟ لم أجد عملاً، ولا أستطيع الدراسة، فالأشغال إما ممنوع أن نعمل بها، وإما يزاحمنا عليها السوريون.

– لا أدري لماذا نقسو عليكم، مع أننا نستقبل لاجئين آخرين من العراق؟

– لأنهم مسيحيون لم يعترض عليهم أحد.

– ليس الأمر كذلك، فالفلسطينيون مسلمون، والطوائف الإسلامية بعضها لا يريدهم في لبنان.

– كأننا رهن للتجاذبات السياسية والتقسيمات الطائفية.

– لا أحد يفكر لمصلحة لبنان. لا أحد له بعد نظر من قياداتنا السياسية. كلهم طائفيون.

شعرت براحة، فها أنا أتفق مع الفلسطينيين حول لبنان فيما أختلف مع آخرين حوله.

هبطت الطائرة بسلام. عندما اقتربنا من قسم الجمارك افترقنا، ذهب سمير إلى قسم الأمريكيين، أما أنا فإلى قسم التأشيرة. قال لي قبل أن نفترق:

– سأنتظرك في الخارج لأدلك على فندق قليل التكاليف، وخلال أيام سأساعدك في السكن مع بعض العرب لتوفر فلوسك، فالسكن هنا غال، لكن لو تقاسمت أجرة البيت مع عدة أشخاص فستكون التكاليف أقل كثيرًا.

شكرته وافترقنا.

اقتربت من موظف التأشيرات. كان رجلاً أبيض طويل القامة، أشقر، عيونه زرقاء. نظر إلي دون أن يبتسم، فأحداث أيلول ليست بعيدة، والجراح ما زالت مؤلمة. سألني:

– كم ستبقى في الولايات المتحدة؟

– شهرًا.

– وأين ستنزل؟

– في أحد الفنادق الصغيرة.

– هل تعرف أحدًا هنا؟

– لا.

كنت سأجيب نعم، لولا أن سمير حذرني بالطائرة.

ختم لي جواز السفر وأعاده إلي.

استرحت كثيرًا بعد ذلك، وتابعت طريقي مزهوًّا بأنني دخلت إلى الولايات المتحد الأمريكية.

ما أسعدني أكثر أن بعض الإشارات في المطار كانت باللغة العربية. يبدو أن العرب هنا أصبح لهم دور بعد أن فقدوه في بلادهم. كان المطار يعج بالناس من كل مكان، ولم يكن صعبًا أن تعرف اللبنانيين من لباسهم، وحديثهم، وعناقهم.

بحثت عن مكان الحقائب للطائرة التي أقلتنا (ك. ل. م) حتى وجدتها. كان سمير يقف مثلي يبحث عن حقائبه، وعندما رآني قال لي:

- أهلاً وسهلاً بك في أمريكا.

الآن أنت في الولايات المتحدة. لا تخش أحدًا. يمكنك أن تسافر إلى أي مكان في الولايات المتحدة دون أن يسألك أحد عن بطاقة، أو جواز سفر. راقب حزام الحقائب واحضر حقائبك هنا لنحضر عربة لنقلها إلى الخارج. أصدقائي في الخارج ينتظرون. سنساعدك في العثور على الفندق.

لم يكن معي سوى حقيبة واحدة، وضعتها مع حقيبة اليد على عربة سمير وسرت خلفه، وبينما كان يجر عربته نظر إلينا موظف الجمارك وسألنا:

- من أين جئتم؟

- من لبنان!

فأشار إلينا أن نذهب إلى التفتيش.

فتشوا الحقائب، وعندما تأكدوا أننا لا نحمل مأكولات أشاروا إلينا بالخروج.

كان عدة أصدقاء بانتظار سمير. كلهم فلسطينيون من لبنان. سلموا علي ورحبوا بي على الطريقة اللبنانية. قال لهم سمير:

– أعرّفكم سامح من لبنان من صيدا. جاء يبحث عن عمل. أريدكم أن تساعدوه في العثور على فندق قليل التكاليف.

فقال له أحدهم ويدعى حازم:

– لماذا فندق؟ يمكنه السكن مع بعض الشباب.

– هل تعرف أحدًا الآن؟

الليلة سينام عندي ولو؟ وغدًا بعد (الترويقة) نتصل بالشباب الفلسطينيين واللبنانيين وسنجد له مكانًا ينام فيه.

نظر إلي حازم وقال:

– تكرم عينك يا سامح، لعيون صيدا أنت بعيوني.

شكرًا.. شكرًا يا حازم. هل أنت من صيدا؟

– أنا من مخيم عين الحلوة.

قلت له:

– لا تتعب نفسك. يمكن مساعدتي في العثور على فندق.

– معقول؟ تحملتمونا خمسين سنة، أفلا نتحملك عدة أيام. سأشم فيك رائحة صيدا وكورنيشها، والكعك والجلاب.

ركبت معهم في سيارة (جي. أم. سي) كبيرة، واتجه بنا إلى البيت.

بعد أن أوصلوا سمير إلى بيته تفرقوا، وتوجهت مع حازم إلى بيته. كنت محرجًا، فأنا لم أعرف حازم بعد. عجبت كيف يقبل أن يستقبلني في بيته دون أن يعرفني!

استقبلتني زوجته استقبالاً حارًّا. كانت مثله من فلسطينيي لبنان، وكان العشاء جاهزًا، فتعشينا معًا. قال لي:

– لا تخجل، اعتبرني أخاك من اليوم. الآن ستذهب إلى الحمام لتريح نفسك من عناء السفر.

قادني إلى غرفة مجاورة، قال لي:

– هنا ستنام. لا شك أنك متعب، وفي الصباح سنخرج معًا.

قلت له:

– لا بد أنني أعطلك عن عملك.

– واجب الضيافة يا سامح. أنسيت نحن أهل الكرم.

ابتسمت، وقلت له:

– شكرًا على كرمك. أرجو أن أرد لك هذا المعروف عندما نلتقي في لبنان.

دخلت إلى الحمام مع غياري، وعاد هو إلى غرفة الجلوس. شعرت حقًّا

أنني مدين له، ابن المخيم الذي تمنع عنهم حكومتنا إدخال الإسمنت ليرمموا بيوتهم يقدم لي المساعدة ويفتح لي بيته.

كنت تعبًا جدًّا، وما أن بدأ الماء ينزل على جسمي حتى شعرت بالراحة، وعندما وضعت رأسي على الوسادة استعدادًا للنوم، كنت قد شعرت لأول مرة ماذا يعني البعد عن الوطن.

إنه اليوم الأول، لكنه اليوم الذي منه تبدأ رحلتي الطويلة في بلاد الاغتراب.

(٢٦)

دخلت محلات أسواق المصطفى في منطقة ديربورن مع حازم، وقد أعجبت فعلاً بالمحل وترتيبه. لم أتوقع أن يكون بهذا الحجم وهذا التنظيم. كان لا يقارن بالمحلات الأخرى التي زرتها قبل ذلك. إنه فخر لبنان أن يكون هذا المحل لبنانيًّا. بعض الموظفات كن محجبات. يا إلهي.. الزبائن المحجبات هنا أكثر من لبنان! لفتت انتباهي الصحف والمجلات اللبنانية والعربية. قرأت عناوين الأخبار.

أحسست أنني لم أغب عن لبنان. دخلنا إلى المحل نتفرج بين الأجنحة. كان حازم يشرح لي كيف يقسم المحل. رأيت بضاعة قرطاس والأرز. كل الأكل اللبناني هنا، كأنهم نقلوا لبنان إلى أمريكا!

اللبنانيون المغتربون ينقلون لبنان معهم، وبعض الباقين في لبنان، ينقلون أمريكا إلى لبنان. كم كان أفضل لو هاجر اللبنانيون الأمريكيون، وعاد الأمريكيون اللبنانيون!

بعد دقائق، توجه حازم إلى باب غرفة المراقبة. كان في داخلها رجل يجلس أمام شاشات المراقبة مهمته مراقبة المحل على الشاشات وإدارة المحل. كان حازم يعرفه من قبل، سلم عليه، وقال له:

– أعرّفك إلى شاب لبناني جديد اسمه سامح.

نظر إلي وسلم مرحبًا:

– تشرفنا من أين أنت؟

– من صيدا.

– من صيدا؟ حلت علينا البركة. أنا من الجنوب من صور.

قال له حازم:

– سامح محاسب، يعمل في البنك العربي في شارع الصلح، ويبحث عن عمل، فهل يمكن مساعدته؟

هز رأسه وقال:

– بعد قليل سيحضر الحاج حيدر. انتظر قليلاً لنسأله.

شكرناه، وعدنا إلى داخل المحل لنتفرج ثم نعود.

انتظرت الحاج حيدر بفارغ الصبر، وكنت أدعو الله أن يوافق.

بعد قليل قال لي حازم:

- حضر الحاج حيدر.

توجهنا إلى المكتب. كان يجلس رجلان أحدهما رجل كبير في السن، شعره أبيض، يبدو أنه في السبعين من عمره، والثاني شاب في الثلاثين من عمره باسمًا. رحب بنا وأجلسناز كنت أدقق النظر في وجه الرجل العجوز، فقال لي حازم:

- نعرّفك إلى الحاج حيدر.

فوجئت أن الحاج حيدر كان الشاب المبتسم وليس العجوز. لا أدري لماذا تخيلت الحاج حيدر رجلاً طاعنًا في السن. ربما لأن معظم الذين يذهبون للحج كبار السن، بجيل الآباء وليس الأبناء. ربما لم أتوقع أن يكون ذلك الشاب هو صاحب المحل. محل بهذا الحجم يحتاج إلى خبرة في الإدارة. أعجبت به من أول نظرة، وزدت فخرًا به أنه لبناني حقيقي، حقق كل هذا النجاح وهو في ريعان الشباب؟! هكذا هم اللبنانيون. ليتهم كلهم مثله.

كان الحاج حيدر مرحًا. لم أتوقع أن يكون بتلك اللطافة. قال لنا مرحبًا:

- أهلاً وسهلاً. نورتم المحل. يا سلام! أنا أشم بكما رائحة لبنان وفلسطين. اجلسا.

فجأة نادى أحد الشباب وقال له:

– أحضر لنا شيئًا للضيوف.

قال له حازم:

– لن نأخذ من وقتلك كثيرًا حاج حيدر. هذا سامح من بلدكم...

فقاطعه الحاج حيدر، وقال له:

– لا تقل بلدنا وبلدكم، كلها بلادنا معًا، جزأها الاستعمار، فلماذا نجزئها نحن؟

ضحك حازم وقال له:

– من بلدنا لبنان، يا حاج حيدر، لو قلتها في لبنان (بلدنا)، لقالوا لي: "تريد الاستيطان في بلدنا"!

فقال الحاج حيدر:

– لا تقلق لما يقولون. نوّرت المحل أنت وسامح.

قلت له:

– شكرًا حاج حيدر، هذا من لطفك.

سألني:

– أنت من أين من لبنان؟

– من صيدا.

- يعني من الجنوب، من قلعة الصمود.

- كل لبنان قلعة صمود إن شاء الله.

- الحمد لله. وماذا كنت تعمل هناك؟

- أنا موظف في البنك العربي، وقد جئت هنا بحثًا عن عمل أفضل.

- أنت محاسب؟

- طبعًا، ومعي شهادة جامعية.

- عظيم. نحن بحاجة إلى محاسب.

قال حازم:

- لهذا جئنا إليك يا حاج حيدر.

فقال له الحاج حيدر:

- تكرم عينك وعين سامح.

حضر الموظف، وقدم لكل منا زجاجة من عصير المانجا. شكرناه، فقال الحاج حيدر:

- سنوظفك، ونقدم لك طلبًا رسميا أنك تعمل لدينا لأنك بدون إقامة، ونطالب أن يمنحوك فيزا عمل حتى يكون وضعك قانونيًّا.

صمت ثم قال:

- إن كنت تنوي الزواج من لبنانية، فهم كثر في المنطقة.

ابتسمت وقلت له:

- واضح من الزبائن؛ كأن لبنان كله انتقل إلى هنا.

- إذًا على بركة الله. تعال عندي بعد أسبوع لتستلم العمل، وسنرتب معك كافة الأمور، ونطلعك على طريقة عمل مصلحة الضرائب.

وقف حازم مستأذنًا وقال:

- شكرًا لك يا حاج حيدر، واسمح لنا أن نتركك تتابع أعمالك. سيكون سامح هنا في الوقت المحدد بعد أسبوع.

حملت كرت المحل، وخرجت مع حازم شاكرًا الحاج حيدر، وحامدًا الله على أنه وفقني بإيجاد عمل.

لا أدري هل أشكر الحاج حيدر أم حازم أم كليهما؟ لقد قدم لي حازم كل ما استطاع، فبعد أن هيأ لي العمل، أجرى عدة اتصالات، ثم قال لي:

- وجدت لك شقة مع شاب لبناني مثلك، يمكن أن ترتاح معه. طالب جامعي، تتقاسم معه أجرة الشقة، وبعد أن تتعرف إلى البلد، تقرر حينها أين ستسكن. أما الآن قبل أن أعرفك على شريكك في الشقة واسمه حسين، دعنا نذهب إلى مطعم شتورا لنتناول الكنافة اللبنانية، وتشاهد إحدى المصانع المشهورة للحلويات في الولايات المتحدة، التي يفخر بها اللبنانيون.

(٢٧)

اليوم انتهت زيارتنا إلى لبنان. كانت زوجتي عواطف والأولاد في قمة السعادة حتى أنهم طلبوا مني تمديد الزيارة، لكنني وعدتهم أن نعود قريبًا. مَن يدري؟ فقد نرجع يومًا إلى الوطن الذي رحلت عنه. لم أتوقع أن تكون عواطف في تلك السعادة. تأقلمت بسرعة مع الأهل هناك، حتى مع رانيا أصبحت صديقتها. كانت تثرثر معها كأنها تعرفها منذ سنوات. أذكر عندما كنا نتمشى في كورنيش صيدا معًا، وكان معنا فادي، ورانيا طلبت مني أن تلتقط بعض الصور التذكارية معها. وضعت يدها على كتف رانيا كأنها أختها الحقيقية.

هل شعرت عواطف بمأساة رانيا؟

عظيمة هذه المرأة. أشعر أنني مدين لها بالكثير، فهي التي استطاعت أن تنتزعني من الوهم الذي كنت أعيش فيه. هي التي نجحت بإخراجي من عنق الزجاجة. إنها حبي الحقيقي الذي عاش، ونما، وضرب جذوره عميقًا في قلبي.

ما زلت أذكر عندما تعرفت إليها قبل سنوات، كانت مع أهلها من زبائن محلات "أسواق المصطفى". هناك تعرفت إليها بالصدفة. دعوتها للغداء، فلبت الطلب، وعندما التقيتها شعرت أنني لم أبدأ رحلة الحب بعد، وأن عمرًا جديدًا كتب لي. سألتها بعد عدة لقاءات:

- عواطف.. هل تقبلين بي زوجًا لك؟

ابتسمت، وقالت:

- لن أجد أفضل منك.

لم يمض وقت طويل حتى كنت مع الحاج حيدر وبعض الزملاء اللبنانيين في بيت أهلها نطلب يدها، وبعد أسابيع كنت أحتفل معها بزواجنا.

لم يستطع أحد من العائلة الحضور، فقد رفض القنصل الأمريكي منح أي منهم فيزا لأن ابنهم ذهب في زيارة ولم يعد، وقد يفعلون مثله. وعندما قررت زيارة لبنان مع العائلة كان أبي وأمي قد فارقا الحياة.

(٢٨)

وأخيرا وصلنا بيتنا في الولايات المتحدة بعد سفر شهر كامل. كان شعورًا بالراحة بعد هذا الغياب الطويل. أدخلنا الحقائب، وكان أول شيء فعلته استلقيت على التخت لأستريح من عناء السفر، وربما من عناء الذكريات والآلام، فقد قررت أن أضع حدًّا لتلك الذكريات القديمة. هل أخطأت في زيارة لبنان هذا العام؟ كنت أفكر وأسرح بتفكيري باحثًا عن إجابة حتى رن جرس الهاتف. قلت في نفسي:

– من هذا الذي عرف بوصولنا فاتصل يهنئنا بالسلامة؟

رفعت السماعة، فجاءني الصوت:

– ألو.. سامح؟

كان صوت فادي على الخط الآخر.

– أهلاً فادي. لم يمر على وصولنا عشر دقائق بعد، يبدو أنك أسرع منا للقيام بالواجب.

– أنت أهل الواجب يا سامح، لم أتصل لذلك، لكن... (توقف برهة وكان يبكي). سألته:

– ما الخبر يا فادي؟ هل أصابك مكروه؟

– أنا بخير، ولكن هي...

- لا تقل هي مرة أخرى، ماذا حصل؟

- توفيت اليوم؟

- توفيت... كيف؟

ذهبت إلى شقتها. قرعت الباب فلم ترد علي. كنت أعرف أنها في الداخل، فاعتقدت أن شيئًا أصابها، فاقتحمت البيت عنوة، ودخلت غرفة نومها لأجدها...

لم يكمل حديثه وواصل بكاءه. قلت له:

- ماتت، بهذه السرعة؟! يا الله.. ما هذه الفاجعة؟!

لم أعرف ماذا أقول له. كنت مثل الذي تلقى الصدمة من الخلف فسقط مغشيًّا عليه.

قلت له بعد صمت طويل:

- هل ستدفنونها اليوم أم يمكن تأجيل الدفن؟

رد علي بانفعال:

- لن أسمح لهم بدفنها حتى تأذن أنت.

- أنا؟ وبأي صفة؟

- أنت تعرف بأية صفة. هل تنوي الحضور لتلقي نظرة الوداع؟

- الليلة سأغادر إلى بيروت.

- نحن بانتظارك.

ثم أنهى الحديث.

نظرت إلى زوجتي وسألتني:

- إلى بيروت؟ ألم نعد من هناك قبل قليل؟

- لقد ماتت.

- رحمها الله. لكن ما عساك أن تفعل. أليس لها أهل ليدفنوها؟

- بلى لها أهل، ولكن...

- ولكن ماذا؟ ألم تقل أن علاقتك بها انتهت؟ إلى متى ستظل تحمل مشاكلها حتى بعد موتها؟

من الصعب أن أشرح لزوجتي كل الأشياء، قد تكون على حق.

لم يعجبها حديثي، ثم علّقت:

- وهل تنوي السفر في ذكرى الأربعين؟ أم في ذكرى السنة؟

نظرت في عينيها وقلت لها:

- أعدك أنها الرحلة الأخيرة.

(٢٩)

في الطريق إلى بيت أهلها قلت له:

- هل افتقدتها؟

رد علي قائلاً:

- وهل نسيتها أنت؟

- ألم يختر كل منا طريقه؟

- نحن لم نتحدث عن الخيارات، لكن هل خرجت فعلاً من حياتك نهائيًّا؟

- ربما الآن.

- فلماذا عدت إذًا؟

- لا أدري، ربما لألقي نظرة الوداع.

لماذا يصر الناس على إلقاء نظرة الوداع على الجثث؟ أهو واجب تجاه من نحبهم، أم كي نرضي ضمائرنا، أم لأننا بتلك النظرة نستعيد أيامًا حلوة مضت؟ وأين تلك الأيام التي سأتذكرها بإلقاء نظرة الوداع عليها؟

ما الذي سأتذكره حين أراها ممددة أمامي جثة هامدة؟ أيام الشقاء؟ أيام الحب، أم أيام الغباء التي مرت؟

أهو حظنا ونصيبنا؟ أم إرادة الله فينا؟ هل نبكي لما حل فينا، أن نصبر

ونعده امتحانًا علينا النجاح به؟

تُرى لماذا ماتت وهي تحمل رسالتي الأخيرة وصورتي الشخصية؟ هل كانت تفكر بقصتنا القديمة؟ هل كانت تعيش لحظات الندم على ما فعلته بي، أم على ما حل بها؟ هل كانت تبكي حظها التعيس واختيارها الأتعس، أم كانت تبكي خسارتها لي؟ كيف لي أن أعرف ما كان يدور بخلدها؟ مهما كان الأمر فقد ماتت، كأنها أرادت أن تقول: "لقد أتعبتك معي كثيرًا. أرهقتك بمشاكلي، والآن أتركك وفادي لأرحل بسلام..

هل تذكر يا سامح تلك الرسالة التي كتبتها لك عندما حاولت الانتحار؟ ما زلت تحتفظ برسالتها في أرشيفك الخاص، وتحفظ نص تلك الرسالة كأنها قصيدة شعر، كتبت لك فيها:

أتمنى الموت

أشكركم على كل شيء

أتمنى الموت من كل قلبي، جميعكم تظنون أنكم ضحاياي، ولكني أنا أول ضحية لنفسي.

لم أكن راضية عن حياتي سابقًا، وطلبت من الله أن يهديني وقد فعل، ولكنكم تجهلون الجرح الذي في داخلي.

كم أنا عاجزة عن المواجهة بخطئي الذي أكرهه، وليس لأنني أريد الكذب، بل أكره نفسي لأنني كنت غبية بحياتي الماضية، ومحبتي للناس، وكم أضروا بي، وكم جلبت لنفسي المتاعب، ولكم.

إن ظللت حية أرجو أن تحاولوا أن تساعدوني على تخطي الخوف من الانحراف بأخطائي، والتخلص من نفايات الماضي التي في داخلي، وإن مت فالله يسامحني وسامحوني.

رانيا

آه عليك يا رانيا. رحمك الله. كم كنت تتألمين وتتعذبين بحياتك! كم مرة حاولت الانتحار وأنقذناك في اللحظة الأخيرة! كنت تحاولين دائمًا الهروب من مشاكلك بالانتحار. كنت تخافين المواجهة. كنت مستسلمة للاكتئاب. كنت لا تريدين المقاومة. تشعرين بالعجز التام. استسلمت لأوهامك فدمرت نفسك ودمرت من أحبوك. ترتعبين من الحقيقة. لم تكن تعترف أنها استسلمت للجاني، وكانت تصر أنها تحاول تخطي عقدتها.

وصلنا إلى بيت أهلها. كانوا ينتظروننا لانطلاق الجنازة. سلمت على الأهل الذين استقبلوني بفتور، فلم يحدث أن جاء زوج سابق للعزاء بامرأة متزوجة وبصحبة زوجها اللاحق. تصرف غير مفهوم، وغير مبرر، لكن فادي يعرفهم جميعًا.

قال لهم بصوت حزين:

- جاء يقدم العزاء قبل سفره. هل انتهى كل شيء؟

هزت الأم رأسها وقالت:

- سننطلق خلال دقائق.

نظرت إلى أمها وأشاحت وجهها، ولم تسلم علي كأنني أنا المذنب الذي أجرم بحق ابنتها، أما أخوها زياد فقد تقبل التعازي وشكرني للحضور، فهو يعرف أخته أكثر من أمه، ويعرف أنها وراء طلاقها.

اخترق فادي الصفوف، وقال لأمها:

- سنلقي عليها نظرة الوداع.

فقالت له أمها:

- كيف ستصطحب غريبًا عنها؟

- وهل هي عريانة؟ أنا زوجها وهو معي.

لم أتفوه بكلمة واحدة. تركت له شق الطريق بتأثيره عليهم. دخل الغرفة فدخلت وراءه. أغلق الباب وراءنا فلم يبق سوانا ورانيا.

كانت تغط في الصندوق في نوم أبدي.

تقدمنا منها كجنديين يقدمان التحية في لحظة وداع. قرأنا الفاتحة معًا، ودعونا لها بالرحمة. كان وجهها شاحبًا حزينًا، كأنها تحمل معها كل هموم الدنيا، أو كأنها حملت أحزان العالم التي لم يحملها المسيح في حياته.

نظرت إليها متمنيًا أن تفتح عيونها لأراها للمرة الأخيرة.

أين ذلك البريق الذي كان يشع من عينيها؟ أين سحر عيونها؟ أين نظراتها التي كنت لا أنام الليل مبهورًا بهما؟ تمسمرت في مكاني.

قال لي فادي:

– ماذا تنتظر؟

كأنه فهم ما أفكر به. كان دائمًا يقرأ أفكاري، وكان دائمًا يساعدني على التقدم بخطوات، لكن كلها فشلت، فهل تنجح الآن؟

قال لي:

– لو كانت الجثة قد فقدت قدسيتها ما تمسمرنا أمامها نذرف الدموع. قبلها قبلة الوداع، فقد طال وجودنا في الغرفة.

ملت برأسي نحوها. دققت النظر في شفتيها ووجنتيها، هاتان الوجنتان الجميلتان كم قبّلتهما، أما شفتاها فقد كانت تمتنع أن يصل إليها أحد.

كنت أحلم أن أقبّلها، لكنها كانت تصاب بحالة عصبية كلما هممت بذلك أو اقتربت منهما، وإذا تقدمت نحوهما تغضب وتصاب بهستيريا كأنها المنطقة المحرمة التي لا يستطيع الوصول إليها أي أحد. سأقبلها من وجنتيها، من المنطقة التي كانت تسمح لي أن أطبع قبلاتي عليها دون خوف. لم تسمح لي أن أقترب من الشفتين، أفأقترب منهما بعد موتها؟ إنها خيانة.

اقتربت منها أكثر. أصبح رأسي فوق رأسها. وضعت يدي على رأسها أتحسسه للمرة الأخيرة. كنت في تلك اللحظة أستعيد رحلتي معها. ألقيت برأسي وصدري عليها. عانقتها كما يتعانق الأحباب. كانت دموعي تنهمر كسيل جارف، بل كنهر دافق لا يقف في طريقه أحد.

لا أدري من أين جاء صوتها، لكأنني سمعته يرن في أذني: «سامح.. أحبك... سامح.. خلصني من طعم شفتيه العالقتين على شفتي».

نظرت إلى شفتيها وأطبقت شفتي عليهما لتكون قبلة الوداع خاتمة مآسيها، لأغير بها طعم الجريمة التي ظلت تتذوقها طوال عمرها. طبعت آخر قبلة على شفتيها بينما كانت الدموع تغسلها كي تهزم صورة المجرم الذي ظل يعيش داخلها ويهزمها، وكي لا تكون قبلاته التي اغتصبها آخر ما يطبع على شفتيها.

إنها قبلة حبيب صادق، لعلها تخفف آلام السنين الماضية.

قلت لها بعد أن انتهيت:

- وداعًا حبيبتي!

لن يوقظني من شرودي سوى طرق على الباب وصوت أمها وهي تقول:

- الجنازة ستبدأ الآن. افتحا الباب.

- كان فادي يذرف الدموع مثلي. مسحنا دموعنا، وعدلت من وقفتي.

دخلت أمها وبعض النساء. أغلقن الكفن وأحكمن إغلاقه. دخل بعض الرجال من أهلها وأقاربها وحملوها وخرجوا بها.

سمعت أمها تتمتم إلى امرأة تقف بجانبها:

- إن كان زعلان عليها فلماذا طلقها؟ رجال ليس عليهم أمان.

فردت عليها:

– حرام عليك لا تظلميه. العشرة لا تهون إلا على أولاد الحرام.

توجهت الجنازة إلى المقبرة. كانت جنازة صغيرة تضم بعض الأهل والأقارب والأصدقاء. لم يحضر كل معارفها، كأنهم تبرؤوا منها بعد موتها. كان أهل فادي في الجنازة على الرغم من معرفتهم أنه كان زوجًا على ورق. أحبوها لأنهم تضامنوا معها.

دفنّاها وسط الدموع. تقدم فادي وحملها معهم إلى مثواها الأخير. لم يكن بمقدوري التقدم والمشاركة في إنزالها إلى القبر. كانت التقاليد والأصول تفرض احترامها علي.

كنت الوحيد الذي يبكي بصمت، ويتألم بصمت، ويراقب بصمت. كان الصمت في ذلك الموقف أبلغ من أي كلام.

ها هي رانيا التي ملأت أحزانها العالم، ولطخت دماء بكارتها بيروت الجميلة تنزل إلى مثواها الأخير! أتكون تلك نهايتها؟ يا لتلك الطفولة المعذبة! الرجال قتلوا فيها كل شيء. أضاعوا أحلامها. سرقوها مثلما يسرق لص ألعاب طفل ليحرمه من اللهو بها، أو يسرق من العازف آلته الموسيقية. سرقوا بهجتها. سرقوا بسمتها.

تضحك وتُضْحِك غيرها، فيما قلبها يبكي.

بعض الناس يحولون آلامهم إلى إبداع، ويجعلون من نار الجلاد طريقًا إلى القمة.

المضطهدون يثورون كلما زاد الاضطهاد الواقع عليهم، ليتحرروا من نير الظلم، لكنها أبدًا ما استطاعت أن تتغير. لقد وقعت فريسة بيد جلادها، فأطبق أظافره على رقبتها كما يطبق الأسد فكّيه حول رقبة فريسته فيحرمها من الحركة، ويتركها لحظات تعيش نهايتها المؤلمة.

– انتهت–

PAGE

PAGE 292